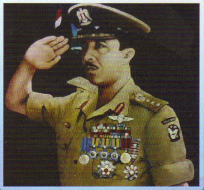
المجلس القومي للشباب
National Council For Youth

القراءة للجميع

صباح الخير

حدوته مصرية



إبراهيم الرفاعى

بطل العمليات المستحيلة

بقلم / على ماهر عيد

الموسوعة الثقافية للشباب (العدد ٣) اكتوبر ٢٠٠٩

القراءة للجميع

الجلس القومي للشباب

National Council For Youth

صباح الخير

حدوته مصرية



إبراهيم الرفاعى

بطل العمليات المستحيلة

بقلم / على ماهر عيد

إهداء من القراءة للجميع

مبادرة المليون كتاب

الموسوعة الثقافية للشباب

بالتعاون بين المجلس القومى للشباب ومؤسسة روزاليوسف ، ومجلة صباح الخير

أكتوبر ٢٠٠٩

المرأة للمجتمع

المجلس القومى للشباب

حدوته مصرية

إبراهيم الرفاعى

بطل العمليات المستحيلة

بقلم / على ماهر عيد

المراسلات
المجلس القومى للشباب
شارع ٢٦ يوليو . ميدان سفنكس
تليفون وفاكس :
٣٣٤٦٧٣٦٧
web:www.alshabab.gov.eg

صباح الخير

للقلوب الشابة
والعقول المتحررة

رئيس مجلس الإدارة
كرم جبر

رئيس التحرير
محمد عبدالنور

الإدارة والتحرير والمطابع
٨٩ أ ش قصر العينى /القاهرة
تليفون: ٢٧٩٢٠٥٤٠ / ٢٧٩٢٠٥٣٩ /
٢٧٩٢٠٥٣٧/٢٧٩٢٠٥٣٨
مكتب الإسكندرية شارع كنيسة دبانة
٤٨٦٥٧٧١ / ٠٣ - ٤٨٤٧٥٢٧ / ٠٣
فاكس ٤٨٧٨٩٣٣ / ٠٣
مكتب الإسماعيلية ١٨ شارع
السلطان حسين ـ الإسماعيلية
ت : ٣٩٢٣٨٧٩ / ٠٦٤
فاكسميلى روز اليوسف ٢٧٩٥٦٤١٣
فاكسميلى صباح الخير : ٢ ٧٩٢٣٥٠٩
فاكس الإعلانات والاشتراكات:
٢٧٩٢٢٣٤٤
الإلكترونى: rosa@soficom.com.eg
www.rosaonline.net e-mail:

المحتويات

١ - بيــت الأبطــال

أمواج الليل ساقت بروة قاسية

تململ الأب (السيد الرفاعى)، وهم يلملم الروب محتميا به من البرد، تحول إلى أذنين مرهفتين وهو يتابع المذياع.

جنود بريطانيا وفرنسا وإسرائيل احتلوا سيناء وبورسعيد فى نوفمبر ١٩٥٦.

وهو يتابع صوت المذياع كأنه ينتظر حدثا يغير الواقع.(هفت عليه ريح خفية مجهولة مليئة بجميع الاحتمالات)

نظراته تعلقت بزوجته التى دخلت الحجرة، وهى محنية الرأس... كأن الأفكار أثقلتها.

- ماذا بك؟

انبعثت نظراتها حزينة، وتمتمت بصوت ملىء بالشفقة والإنكسار:

- الأولاد....

بلهفة: ماذا بهم؟!

- موجودن فى الصالة.

«يا لقلب النساء!!. وماذا يعنى وجود الأولاد فى الصالة»؟!

«أى أولاد؟! إنهم رجال - أحدهم ضابط منذ عامين والثانى فى السنة النهائية فى كلية التجارة، والثالث فى الكلية الحربية فى

السنة الثانية، والأخير سامى فى السنة الأولى فى الكلية الحربية أيضا» نظر مرة أخرى إلى زوجته.

فرأى الحزن يرسب فى حدقاتها

وسألها مستوضحا: ماذا يفعل الأولاد فى الصالة؟

انهمرت الدموع على وجنتيها

«زوجته القوية تبكى!!»

سمع صوتا أجوف ينادى: طف النور.

إنهم شباب المقاومة الشعبية فى بلقاس يبددون طاقتهم فى نداءات مزعجة «طفِ النور»... من قال إن المقاومة منحصرة فى تلك النداءات؟!

سأقوم لأرى.. ما سبب هذه الدموع الصامتة؟!

برغمة شعر بالفخر، ونظراته تطوف بوجوه أبنائه الأربع.

إنهم يقفون فى الصالة، وهم بكامل ملابسهم، وكل منهم يمسك حقيبة صغيرة لكن ما أزعجه هو هذا الجمود الذى يكسو وجوههم، وكأنهم اتخذوا قرارا نهائيا للفراق.

حاول الابتسام ليخفف من توتره.

قال فى محاولة لإذابة الجمود: السلام عليكم.

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

– ماذا هناك يا إبراهيم؟ (إبراهيم الرفاعى من مواليد ١٩٣١م)

– سنذهب إلى بورسعيد.

ارتفع نشيج الأم، وقد سرت رعشة ألم في قلبها.
نظر الأب إلى الأم، فوجد نظراتها تسيل حبا لأولادها.
سأل الأب:
من الذي سيذهب؟
إبراهيم:
نحن الأربعة
- أنت ضابط في الجيش، وهذا واجبك، فماذا عن الباقي؟!
تقدم سمير الأبن الثاني، وهو يثبت نظارته الطبية، وقال
- في وقت الخطر، الجميع في خندق واحد.
- نعم يا سمير، أنت في خندق العلم، اجتهد في دراستك
- يا أبي.. ميدان الجهاد الآن في بورسعيد.
توقفت نظرات الأب عند الابن الثالث.
قال سامح:
أنا ضابط يا أبي.
- لم تصبح ضابطا بعد.
- أنا مع أخي الأكبر الضابط إبراهيم الرفاعي.
قالت الأم من خلال دموعها، وأنا؟! من معي؟!
نظر الأولاد إلى الأب وكأنهم يجيبونها
وقال سامي: أمنا مصر تنادينا
غرقت الأم في دموعها، وهي تذوب حباً لأولادها الذين يصرون على

الهجر والفراق.

شعر الأب أنه لا فائدة من الكلام.

وأن الأولاد اتخذوا قرارهم.

وهذا ما رباه فيهم، وعمل على أن يثق كل منهم فى نفسه، ويدرس جميع الاحتمالات، ثم يتخذ قراره، ويعمل على تنفيذه.

ولهذا رأى أن يرتبط الفراق بذكرى دافئة.

فالتفت إلى زوجته، وقال لها: فلتعدى لنا عشاء شهيا احتفاء بالأبناء قبل الفراق.

اتسعت عينا الأم دهشة، وقالت: ماذا؟!

- قالوا لك أن مصر تناديهم،

انتظر قليلا ثم قال: وأنا نفسى أرغب فى الذهاب معهم.

صرخت الأم: فى هذه الحالة يجب أن أصحبكم.

ابتسم الجميع، وقال الأب، جهزى الطعام أفضل.

ثم نظر إلى أبنائه بحب وفخر، وقال: هيا ساعدوا أمكم فى المطبخ حتى لا تتأخروا.

٢ - الكمين

البرد يكاد ينفذ من العظام، والرجال فى داخل العشة يتناولون الشاى ويتدفأون بنار «المنقد»، ويتدارسون خططم المقاومة.

والجميع يرتدون ملابس الصيادين.

وفى خارج العشة هناك من يحرسهم.

قال إبراهيم الرفاعى: لدى خطة لإصطياد عدد من الضباط الأعداء. - قل يا رفاعى... فأنت صائد الثعابين.

- لا أكاد أصدق أنك ضابط حديث.

- اصتموا فلنستمع للبطل.

نظرات أخيه سامح تحضنه وتحييه وتتمسح به.، الفارق فى العمر بينهما ليس كثيراً، ولكنه يتخذه نموذجاً ومثلاً وقدوة.

لأنه.. لا يرى منه إلا كل ما يرفع من قامة الإنسان حتى تطاول النجوم.

فهو هادئ كالجبل.

صامت وعميق كالبئر.

لا شىء يهزه أو يثيره، وعندما يداهمهم حدث كبير يختلج وجهه ويرتعش فمه.. للحظة، وبإرادة فولاذية يسيطر على مشاعره، ويسربل وجهه بقناع هادئ ثم يبتسم، ويقول: هذا أمر تافه، ومن السهل مواجهته والتغلب عليه، دعونا ندرس جميع الاحتمالات ثم

نختار القرار المناسب.

وكان يغذى عقله بالقراءة فى جميع الميادين، بل وأتقن اللغة الإنجليزية والفرنسية.

صمت إبراهيم الرفاعى قليلا، ثم قال: إليكم خطتى.

وشرح لهم خطته، وطلب إثنين لمشاركته فى المغامرة.

قال سامح باندفاع وقوة: أنا معك.

وصاح سمير وسامى: ونحن أيضا معك

قال النقيب عمر رئيس المجموعة: لا، يكفى إبراهيم وسامح، فلن ندفع بالأخوة الأربع فى مخاطرة واحدة.

توجه مجموعة من الضباط الإنجليز لركوب سيارتين عسكرتين.

لكن أنظار الجميع توجهت إلى سيارة مدنية تمرق من أمامهم يقودها صياد، وبجانبه صياد صغير يمسك بندقية.

صاح أحد الضباط الإنجليز كأنه اكتشف شيئا خارقا: هذا الصياد من القتلة المخربين. (هكذا يدعون رجال المقاومة)

- فلنتبع هذه السيارة.

- ستقودنا إلى صيد ثمين

قال أحدهم: قد يكون كمينا

- ولماذا نخاف؟! ونحن كثرة من الضباط ومعنا أسلحة حديثة

- فلنتبع هذه السيارة بحذر.

والسيارة تترك الشارع، وتدخل إلى حارة، والسيارتان

العسكريتان تدخلان الحارة.

وقال أحد الضباط: فليكفى هذا، فلنقتل الصيادين ونستولى على السيارة

قال آخر فلنأسرهما، فقد نعرف منهما الكثير.

– أسرع خلفها، وأطلق دفعة نيران تحذير.

وقبل أن يفكر أحد، ظهر رجال المقاومة من النوافذ، وأمطروا السيارتين بالرصاص، وخرج إبراهيم، وقذف قنبلة يدوية على سيارة وتبعه سامح، وهو يطلق مدفعة الرشاش.

وبعد قليل سكنت الحركة تماما.

وغنم الفدائيون كمية من الأسلحة الحديثة.

وفقدت بريطانيا عدداً من الضباط جاءوا من لندن فى الطائرات للقاء حتفهم على أرض ليست أرضهم بأيدى رجال لا يعرفونهم رجال يدافعون عن حقهم فى الحياة بكرامة.

٣ - الدبابات وسط المدينة

دبابات الجيوش المعتدية
معسكرة فى وسط مدينة بورسعيد
منظر استعراضى لسيادة القوة.
وهو منظر جارح لكل مصرى.
إنجلترا تعلن نحن هنا بقوة السلاح
والحق جثة هامدة تحت جنازير الدبابات
والرياح المحملة بالأتربة تهب على المدينة.

قرر إبراهيم الرفاعى مع الفدائين كسر غرور المعتدى، والحد من امتداد أذرعه الأخطبوطية.

فى أحد مقارهم تجمع رجال المقاومة يتداولون.

قال إبراهيم:

أنا سأواجههم وأحطم دباباتهم بلهفة واندفاع قال سامح: هذا شرف لن يفوتنى

سمير وسامى:

هذه المرة نحن معكما.

النقيب عمر:

يكفى واحد من هذه الأسرة.

إبراهيم رمز لكم.

سمير - لا ، لا أحد يغنى عن الآخر.

سامى - هذا دورى كما وعدتنى.

إبراهيم الرفاعى صامت، نظراته تمسح وجوه أخوته بحب وفخر وقال: أنا أحتاج لأخوتى معى.

قفزت الفرحة على وجوه الأخوة.

وصاح سامى: نحن معاً.

ضحك الرقيب عمر وقال: أنتم لها.

خرج الأخوة الأربعة، ومعهم كثير من المتفجرات، وبعض الرشاشات التى غنموها من العدو.

وقفت السيارة فى مكان بعيد عن الميدان.

نزل الأخوة وهم يرتدون ملابس مختلفة، أحدهم فى جلباب متسع ويلف كوفية على رقبته، وسامى ركب دراجة ووضع على رأسه قفص خبز، وسمير يحمل حقيبة صراف ممتلئة بالقنابل وإبراهيم آثر ملابس الصيادين.

ساق سامى دراجته إلى الميدان، ورأى الدبابات تقف فى حراسة الغرور، ويوجد جنديان بريطانيان يجلسان فى سيارة وهما يتبادلان الذكريات والحنين إلى وطنهما.

تقدم سامى منهما، وقال لهما بلغة إنجليزية مرتبكة: هل تريدان خبزاً؟

قال أحدهم بضيق: أبعد من هنا.

توقف عندهما وقال - تريدان شيئا للمزاج.
لاحظ صمتهما كأن الأمر يعنيهما.
من خلال ابتسامة واسعة، وحركة يديه رسم جسد إمراة بطريقة مثيرة.
ابتسم الجنديان وقال أحدهما جيد جداً
وسأل الآخر: كم الثمن؟
ابتسم سامى وقال:
ليس كثيرا، مجرد عشرين جنيه أسترلينى مع زجاجة وسكى، والويسكى أهم.
ضحك الجنديان.
قال سامي: امسكا القفص حتى أريكما الصورة.
أمسكا القفص، وأخرج سامى مسدسا، وأطلق الرصاص لتنطلق روحاهما فى رحلة مجهولة، وتسيل دماؤها، وتتجمد نظرات عبثية فى أعينهما.
تقدم باقى الأخوة بقيادة إبراهيم، وأحاطوا المنطقة بالمتفجرات وأيضا وضعوا أصابع الديناميت فى أبراج الدبابات، ثم أطلقوا الرشاشات لتنفجر الدبابات ويرتفع اللهب والدخان إلى عنان السماء ويسقط الغرور.
إنذار روسى، وإنذار أمريكى لانسحاب القوات المعتدية وبمقاومة أبطال بورسعيد ورجال المقاومة، انطوت صفحة مجيدة من تاريخ

مصر بالجلاء، وأصبحت معركة ١٩٥٦ مثار الفخر فى مصر.

الأم جالسة فى الشرفة فى محاولة لترويض أحزانها وغلالة رقيقة من الدموع تحول المرئيات إلى ظلال وأشباح.

خفق قلبها بقوة كأنها رأت أشباح أبنائها الأربعة، كل منهم يمسك حقيبته، ويفرشون الطريق بابتساماتهم.

صرخت: أولادى... إبراهيم... سمير... سامح... سامى

جاء الأب إلى الشرفة، وهو يتمتم «الهلاوس تهاجمها بقوة» لكن نظراته تجمدت على وجوه أبنائه

إنهم امتداده.. وصرخة وجوده.. وإثبات كينونية فى هذه الدنيا «ها هم أولادى.. أنا السيد الرفاعى.. مأمور الشرطة».

بعد أن تناولوا الطعام، وفى أثناء شرب الشاى سأل إبراهيم أباه: هل أخطأ الرئيس جمال عبدالناصر بتأميمه لقناة السويس يوليو ١٩٥٦؟

تجول الجميع إلى آذان مرهفة للأب المثقف خريج كلية الحقوق.

قال الأب: هل استرجاع الحق يعتبر خطأ؟!.. لكن إنجلترا وفرنسا استمرأوا احتلال الشعوب، ولم تقرأ الدولتان حركة التاريخ بشكل جيد؟

– كيف؟

– خرجت أوروبا كلها.. مجروحة من الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩–١٩٤٥)، وظهرت إمبراطوريتان جديدتان.

– ماذا تقصد؟

– الولايات المتحدة، والاتحاد السوفيتى.. هما القوتان

الجديدتان ولم تستوعب بريطانيا أو فرنسا هذه الحقيقة، ولذلك فإنهما قررا تلقين مصر درساً قاسيا لمجرد أن رئيس الدولة قرر استرجاع حقنا فى قناة السويس.

سأل سمير طالب كلية التجارة: وما رأيك أنت فى جمال عبدالناصر؟

– إنه يسعى لوضع مصر فى مصاف الدول الكبرى، وهذه بطولة وأعلام، لكن السؤال هل تمتلك الدولة مقومات الدول الكبرى؟

قال سامي: لا أفهم.

قال الأب: من الحكمة أن تكون طموحاتك فى حدود إمكانياتك.

سأل إبراهيم الرفاعي: ما هى مصادر القوة التى يجب أن نمتلكها؟

– القوة الاقتصادية: بمعنى أن نحقق إكتفاء غذائياً أولا ثم فائض ثانيا، وكذلك مصانع تسليح...، ومصادر الطاقة...، وصناعة كل ما يلزمنا.

سأل سامح: ماذا نمتلك من هذه المصادر؟

– القليل

تنهد إبراهيم وقال: أى أن طموح عبدالناصر أكبر من امكانياتنا.

قال الأب بهدوء: المهم أن نضع أحلامنا موضع التنفيذ، فبلد مثل اليابان لا تمتلك من مصادر الطاقة والأرض والمواد الخام إلا القليل... لكنهم يقدمون جهودهم وتفانيهم فى العمل فى إطار نظام مستمر، ونحن يجب أن نتبع خطوات اليابان.

٤ - فى اليمن

مرت ست سنوات على حرب ١٩٥٦م

وعاش إبراهيم الرفاعى حياة روتينية

تزوج من السيدة نادية التهامى، وهو يشعر أن الزمن يبتسم للمصريين، فها هو عبدالناصر يتخذ خطوات جادة فى طريق التصنيع والتسليح والزراعة، والأهم أنه بنى السد العالى (١٩٦٣-١٩٧٠) لتوفير الطاقة اللازمة للتصنيع وأصبح بطلا من أبطال حركة التحرر الوطنى، فهو يساعد كل حركة تحرر من الاستعمار مثل ما ساعد ثورة الجزائر.

وها هو اليمن السعيد قد صحا من نومه الثقيل بعد أن مات الإمام أحمد الذى جمد حركة الزمن خلف القلاع والحصون والجبال مستعينا بجيوش الخرافة والجهل والأساطير والخداع.

قامت حركة الجيش فى اليمن عام ١٩٦٢، وتريد مساعدة مصر.

ولبى عبدالناصر النداء، بدون حسابات لتوازن القوى، وما يحيط باليمن من أنظمة مختلفة.

وذهب إبراهيم الرفاعى، وأخوه سامح إلى هناك

فى مقر قيادة القوات فى صنعاء باليمن

استدعاه القائد، وطلب منه قيادة قول من السيارات محملة بالذخيرة وسط جبال خطره لإنقاذ كتيبة محاصرة.

درس إبراهيم الرفاعى الخريطة، وأخذ دليلا... واتجه إلى الجبال بأقصى سرعة إلى أن وصل إلى مدق ضيق ملتو يشق طريقه بين سلسلة من الجبال.

جاءت نذر الخطر بإنطلاق النيران نحوهم.

طالعت عيناه جبلا شاهقا... يتحكم فى المدق، ويحتله أعداء التغيير.

أمر إبراهيم القول بالتوقف والاحتماء بالصخور.

طافت نظراته بالجبال، واختار جبلا مقابلا للجبل الذى يحتله المتمردون، وقرر تسلقه.

عرض أكثر من جندى القيام بالمهمة بدلاً من الرائد إبراهيم الرفاعى لكنه رفض، كان يعشق الخطر، وإعطاء النموذج للجنود.

بعد تسلقه للجبل، اختار صخرة ساترا له، ووجه رشاشه نحو الأعداء، وقتل اثنين منهم، ثم انتقل من صخرة إلى أخرى واستخدم بندقية آلية خاصة بالقناصة، وهذا فن يتقنه، وبرع فيه من صغره، ودرب نفسه على القنص كثيرا، وقرأ الكتب الخاصة باللغة الإنجليزية.

ولذلك استطاع أن يصطاد المجموعة التى سيطرت على الجبل، وعددهم لم يتجاوز خمس أفراد.

وأصر إبراهيم على أن يتسلق الجبل الذى كانوا يتخذونه وسيلة للسيطرة، فوجد كمية من الأسلحة، وفوجئ بأن هناك ثلاثة جثث

لها ملامح أوروبية.

وأدرك أنهم مرتزقة، كما أدرك أن هذه الحرب ستكون قاسية بسبب الموانع الطبيعية من جبال وكهوف، وأيضا بسبب حرب العصابات المتبعة ضدهم، وكميات الأسلحة الحديثة الموجودة مع المرتزقة، هذا بجانب انضمام بعض القبائل لحرب المصريين المعتدين، كما صُورَ لهم وهناك حرب فكرية ضد المصريين... فانتشرت فكرة أنهم فراعنة كفرة.. يعبدون التماثيل، وكأن الزمن تجمد خمسة آلاف عام زمن الفراعنة، وتوقفت حركة التاريخ، وانتشار الأديان، وكأن تاريخ الإسلام لم يمر على مصر... أو ينتشر نوره فى ربوعها. ولكن الجهل والخرافة والأساطير جمدت العقول، وأظلمت النفوس. وعلى الجنود المصريين أن يحاربوا الجبال والكهوف والقبائل والجهل والأسطورة والمرتزقة.. ومخابرات أوروبية وأمريكية لا تريد للعرب أن ينهضوا من سباتهم كما أن جمال عبدالناصر هذا يفكرهم بمحمد على الذى امتلك جيشا قويا... وأراد الاستقلال لمصر... فشعرت أوروبا بتهديد لمصالحها... وتجمعت أساطيلها لتحطمَ أسطول مصر، ويفرضون على محمد على التقوقع داخل مصر عام ١٨٤١.

هكذا فكر إبراهيم الرفاعى

وفكره... أطلق فى داخله قوة هائلة.

فقاد القول العسكرى... حتى وصل إلى الكتيبة المحاصرة.

كانت الكتيبة فى وضع صعب، ونيران المرتزقة تجمد حركتهم إلى أن ظهر إبراهيم الرفاعى، وأطلق النيران بغزارة، واختفى المحاصرون، وهلل الجنود لإبراهيم وصحبه.

نظرات إبراهيم تمسح الوجوه بحثا عن وجه حبيب.

- أخى إبراهيم

ضحك إبراهيم... ضحكة صافية من نبع صاف.

احتضن أخاه، وقبله.

نظرات الأخ لمحت وجها مختبئا خلف صخرة، وفوهة بندقية مزودة بمنظار.. إنه قناص مرتزق.

فى لحظة جذب أخاه إلى أسفل، وصوب بندقيته نحو القناص ولكنه لم يطلقها، وأطلق آهة وهو يضع يده على صدره. بسرعة صوب الرفاعى بندقيته نحو القناص وجندله.

نظر إلى أخيه، فوجد ضوء عينيه قد خبا.

وانسل ضياء الروح من الجسد.

صاح إبراهيم مناديا: سامح.... سامح

لكن صوته لم يجد مجيبا لأن أخاه انضم إلى قافلة الشهداء.

– تليفون من المنصورة يا إبراهيم

بفتور أمسك السماعة.

– نعم يا أبى... نحن بخير.. والأمور مستقرة، سامح إنه فى خير حال،... نعم رأيته...، وهو فى صحة جيدة... عروس له..

سأخبره.. هل توصيني على أخي يا أبي؟!
نادية... أنجبت ولدا... ماذا تسمونه
... سامح... طبعا سامح
ثم همس: ليكون أخي دائما معي.
الأمطار تهطل بغزارة، والغبار يملأ الجو، والسحب السوداء تغطي السماء، والحرارة تخنق الأنفاس.
شعر إبراهيم أن الهواء ثقيل ولزج.
جهاز الاستقبال.. يصدر صوتا كالأنين.
أسرع إبراهيم إليه، وقرأ رسالة استغاثة من كتيبة محاصرة في منطقة صرواح، الذخيرة تكاد تنفذ، والأعداء يحيطون بالكتيبة تذكر أخاه الشهيد، ففاضت عيناه بالدمع.
أي حرب عبثية هذه؟! هل هي فعلا حربا عبثية.. أليست هي حرب لتخليص عرب مسلمين... من أخطبوط التخلف؟!
آه يا سامح!! لن أسمح بتكرار ما وقع لك، سألقن المرتزقة وقبائل التخلف درساً لن ينسوه.
ذهب إلى القائد، وأبلغه برسالة الكتيبة المحاصرة.
صمت القائد، وقال بلهجة تقريرية: الجو مكفهر، والرؤية غير واضحة لن يقبل أحد الطيران في هذا الجو، ولن نصل إلى صرواح إلا بالطيران.
- دع المهمة لي يا سيدي.

نظر القائد إليه... نظرات كلها شفقة وإعجاب، وقال له:
- لا يا إبراهيم، سأكلف غيرك بها..
- إنى أصر يا سيدى.
- فلننتظر حتى يستقر الجو
- المهمة لا تتحمل الانتظار، ودقيقة واحدة تفصل بين الحياة والموت.

صمت القائد قليلا، فإبراهيم يذكر الحقيقة، والمهمة خطرة، فهل يضحى به؟! ألا يكفى استشهاد أخيه؟!

- نعم، لكن لا أعتقد أن هناك طيار يقبل بالمهمة.
- دع الأمر لى يا سيدى.
- فليبارك الله يا أخى فأنت نموذج مشرف

احتضنه القائد، وأدى إبراهيم التحية وانصرف

تمتم القائد: أرجو أن يحفظك الله، وتعود لنا أيها النسر.

كانت المفاجأة أن هناك أكثر من طيار رغب فى الطيران لإنقاذ الكتيبة، فمجرد وجود إبراهيم معهم هو ضمان لنجاح العملية، ليس هذا فقط، بل وأيضا العودة بنوع غريب من القصص البطولية، يكاد يكون أسطوريا، فهذا الرجل لا يهاب الموت، ويقتحم المجهول، وذهنه يتفتق عن أساليب مبتكرة وخيالية تتسم بالمبادرة والمفاجأة، ويتعامل مع المفاجآت بثبات، وبذهن لاعب شطرنج محترف، قادر بأبسط الألعاب على هزيمة خصمه.

انطلقت طائرة هليكوبتر محملة بالأسلحة، ولا يوجد به سوى الطيار والرائد إبراهيم الرفاعى.

والأمطار الغزيرة تعوق الرؤيا، والجبال الشاهقة تهدد الطائرة بالسقوط، وجنود الأعداء يطلقون النار بغزارة.

والطيار ينظر إلى إبراهيم مستنجدا، الرجل رابض كالنمر، نظراته ثابتة، وتنفسه منتظم، كأنه يقبض على الأمور بيد من حديد.

وصوته واضح: لف.. مرة أخرى.. لابد من نجدتهم.

– قد نتعرض للسقوط يا أفندم

– كن حسن الظن بالله، ولا تذكر أبدا عوامل اليأس والفشل، بل (قل) سننقذهم بإذن الله.

قلب الطيار يمتلئ بالإيمان والثقة فى النجاح ويلف بالطائرة، ويلتفت إلى إبراهيم، ويقول له: فلنسقط الأسلحة لهم يا أفندم.

– لا، فقد تقع فى يد المرتزقة، أنت ستهبط بالطائرة وسأنزل أنا لأقود المعركة.

«إنه رجل لا يعرف الخوف».

هكذا حدث الطيار نفسه، وفجأة التفت الطيار إلى الرفاعى وسأله: ألا تخاف يا سيدى؟!

– أنا إنسان يا إسماعيل... والخوف يهاجمنى فى كل لحظة وأتغلب عليه بالإيمان.

- الإيمان؟!

- نعم أليس لكل أجل كتاب؟!

- لا تلقوا بأنفسكم للتهلكة

أى تهلكه يا إسماعيل، ونحن نحاول إنقاذ أخوة لنا؟!

من مات دون نفسه مات شهيداً.

والسؤال الذى يجب أن يراودك هو فى أى جانب أنت تحارب هل فى جانب الحرية والنور والحضارة.. وتحقيق إرادة الله فى العمران أم فى جانب الظلام والاستبداد؟!

لم يجد إسماعيل كلمة يقولها، فالرفاعى ممتلئ بالثقة والإيمان ويعرف طريقه جيداً... إنه خُلِق ليقود.

وأخيراً هبطت الطائرة، وأسرع الجنود إلى الأسلحة، وفوجئوا بالقائد إبراهيم هو الذى أحضرها بنفسه متحديا الموت، وهذا شحنهم بطاقة معنوية هائلة.

واستطاع إبراهيم الرفاعى بقيادته لهم... فك الحصار وإنزال الهزيمة بالأعداء.

وعاد الطيار ليحكى أساطير عما فعله إبراهيم الرفاعى.

جاء اللواء مختار عز الدين إلى صنعاء لتقييم أداء الجيش المصرى فى اليمن.

قال أحد القادة بفخر: نحن لدينا رائد اشترك وقاد ستين عملية سأله اللواء مختار عز الدين متعجبا: من يكون هذا؟!- الرائد إبراهيم

الرفاعي.

(آه إني سمعت عنه كما سمعت عن سند وعبدالقوى وأحمد عبدالله والوقاد والفخري، حقا إن الأحداث الخطيرة هي التي تظهر معدن الرجال، ليس الرجال هم من يعلقون النياشين، ويحضرون الحفلات ويناضلون خلف الميكروفونات، لكن ما هذا الغرام بالمبالغة.. رائد اشترك في ستين عملية، تكفيه ست عمليات ليكون بطلاً، وهنا مسرح العمليات شاق وصعب وأسطوري.. مكون من جبال عملاقة وكهوف مغرقة في السرية، ومدقات تتحدى كل أنواع المركبات وجو حار ممطر، وأحياناً (عاصف، وبارد).

حدث اللواء مختار عزالدين نفسه بذلك، وفي حجرة العمليات طلب رؤية سجل العمليات اليومي، ووجد نفسه مندمجا في العد..

... ما هذا... الرفاعي... الرفاعي... يا رفاعي مدد

تكرر اسم البطل ستين مرة في ستين عملية بطولية نازل فيها الموت بجراءة، ونفذ عمليات مستحيلة، واحتل قمم جبال، وطهّر كهوف ووديان... حتى أصبح له اسم يثير الرعب في قلوب الأعداء... كل هذا وله أخ استشهد في بداية المجيء... أي كان يحارب وقلبه مثقل بالأحزان أو عامر بالإيمان وحصل على أوسمة وترقيات استثنائية، يكفيه هذا، فليعد للقاهرة.

هذا البطل لا يستكين لبلادة الأيام، ويصر على أن يملأ لحظاته بالمعرفة، وينمي جسده بالتمارين، ووجدانه بالقراءة.

أخذ البطل دورات متلاحقة فى فرقة مظلات، وفرقة صاعقة وفرقة رياضية، ودراسة كلية أركان حرب، وذهب إلى الاتحاد السوفيتى لدراسة فرقة استطلاع... وأتقن الإنجليزية والفرنسية والروسية والعبرية.

إنه رجل يدرك أن المعرفة تنقله إلى أعلى درجات الرقى الإنسانى فنهل من نهر المعرفة بنهم ودأب، ولم يترك عقله أو وجدانه أو جسده للترهل والخمول بل ملأ حياته ولحظاته بكنوز المعرفة والفن فقد عُرف عشقه للموسيقى، وحبه لقراءة عيون الأدب وهمسات الشعر... مع حفظه لآيات القرآن الكريم وتدبر معناه.

لكن الأحداث... صدمت أفكاره... وجعلته يقف متسائلا عما حدث... فنحن الآن... وصلنا إلى عام ١٩٦٧,,. عام الصاعقة.

٥ - الصاعقة ١٩٦٧ - وبطولات منسية

فى مايو ١٩٦٧م توترت الجبهة بين مصر وإسرائيل. وتوالت الأحداث بإيقاع سريع... حتى وصل الأمر إلى غلق خليج العقبة فى وجه الملاحة الإسرائيلية.

وبهذا أخذت الأحداث صفة الخطورة.

وأدارت مصر الأزمة بروح التظاهر... والتفاخر، وانطلقت الأغانى الحماسية والأناشيد الفخمة على إيقاع الطبول وصوت الآلات النحاسية.

وحدث حشد غير منظم للجيش المصرى أو بمعنى آخر تكدس، وانجرف الجميع إلى الجو الحماسى العاطفى، وافتقد الأمر كله إلى التفكير المنطقى، والحنكة السياسية، والمعرفة العسكرية.

وأخذت القرارات المصيرية بشكل فردى غوغائى.

فى الوقت الى أدارت إسرائيل المعركة بشكل علمى مؤسساتى، وحدثت النتيجة الحتمية بين جانبين جانب اعتمد الفردية والحماس والخطب والتظاهر، وجانب اعتمد العلم والتفكير المنطقى للمؤسسات وحدثت الحرب الصاعقة فى ٥ يونيو ١٩٦٧م.

قام الطيران الإسرائيلى فى صباح ٥ يونيو ١٩٦٧ بضرب كل المطارات المصرية فى وقت واحد...، وترك الأمر للقائد العام المصرى الذى رقى من رتبة رائد إلى رتبة مشير بدون خبرة عسكرية

أو إستراتيجية موازية لهذه الترقية...، وكأنك ألبست دُمية بلاستيكية ملابس المشير وزينت كتفيه بالإشارات اللازمة...

(لكن ماذا عن العقل؟!).

وبعد هذه الضربة الكارثة فقد القائد تماسكه وأصدر أوامر متضاربة. «أمر بانسحاب فرقة... ثم أمرا آخر بإعادتها»، ففقد الجميع التماسك لغياب الهدف، وإدارة المعركة... لم يكن عن طريق (فريق آمن قومى) من الكفاءات العسكرية.

كما أن إدارة المعركة السياسية التى وصلت بالأمر إلى الحرب لم تكن عن طريق فريق أمن قومى يدرك خطورة القرار السياسى وعلاقته بالإمكانيات والاستعدادات العسكرية.

فحدث انهيار كامل للجبهات العربية.

جبهة مصر - وجبهة سوريا - وجبهة الأردن.

وهذا الإنهيار عاش الوطن فى غباره... حتى حرب ١٩٧٣. بل مازالت بعض آثاره حتى الآن.

وهذا الانهيار غطى على بطولات عسكرية وحدث فيها مواجهة بين جيش منتصر... معه أحدث الأسلحة، وجيش منهزم بسبب قيادة غير مؤهلة... وحدث له الإنهيار.

. وفى ظل هذه الظروف... كانت معركة جبل لبنى معركة مشرفة للجيش المصرى وأيضا معركة رمانة... وسأكتفى بأحداث جبل لبنى.

٦- معركة جبل لبنى

كانت قوة مدرعات إسرائيلية تتقدم وسط سيناء بقيادة (باف) واصطدم بتشكيل مدرع مصرى فى منطقة جبل لبنى، وحاول الاختراق بسرعة، ولكنه فوجئ بمقاومة عنيفة، بل وخسارة ثلاث دبابات، فاتصل بالقائد إسرائيل تال الذى استولى على مدينة العريش فأمده بقوت مدرعة اندفعت من الشمال إلى الجنوب الغربى وأصبحت القوة المصرية محصورة بين تشكيلين مدرعين، وطالبوا القائد المصرى بالاستسلام...، وأفهموه أنه قد تم الاستيلاء على غزة والعريش... واكتساح سيناء.

فأجابهم بالنيران وأصاب لهم دبابتين.

ارتفعت الروح المعنوية للقائد المصرى بانضمام إبراهيم الرفاعى إليه هو ومجموعة من رجال الصاعقة.

وفى الليل تسلل إبراهيم ورجاله.. وزرعوا ألغاما فى طريق المدرعات الإسرائيلية،... وتسلل بعض الرجال إلى بعض الدبابات، وفتحوا البرج فلم يجدوا أحدا فى الداخل، فألقوا قنابل فى داخل الدبابات... وعادوا إلى التشكيل المصرى، وانفجرت الدبابات... وامتلأت المنطقة بالنيران والدخان جُن القائد (باف)، وطلب زيادة المعونة من القائد إسرائيل تال... الذى طلب معونة الطيران.

وجاء الطيران، ودك المنطقة، ولكن الدبابات المصرية كانت فى موقع حصين.

فى الصباح كرر القائد الإسرائيلى طلب الاستسلام، بل والسماح للمصريين بالتحرك نحو الغرب.

فجاءهم الرد بالنيران.

استدعى القائد المصرى إبراهيم الرفاعى، وفوجىء إبراهيم بإصابة القائد إصابة قاتلة، وطلب من إبراهيم قيادة المجموعة، وعدم إبلاغ ابنه (ابن القائد المصرى)...، وكان ضابطا يعمل ضمن التشكيل ولم يميزه القائد عن غيره.

عرف الابن باستشهاد أبيه، سالت دموع صامتة على خديه وقبل أباه، وقرأ الفاتحة على روحه، وعاد إلى موقعه بثبات.

قسم إبراهيم التشكيل لمواجهة التشكيلين الإسرائيليين.

وتحرك التشكيل الإسرائيلى، فأمر بتقدم تشكيلة بسرعة والإطباق على المجموعة المصرية.

لكن المقاومة أوقفته، وطلب مساعدة الطيران مرة أخرى بالرغم من تفوقه الواضح فى عدد دباباته.

استشهد أحد سائقى الدبابات، فقفز مهندس مكانه قائلا: إنه خبير فى قيادة الدبابة.

كان وجهه متشحا بحماس نارى وهو يخبر إبراهيم الرفاعى بذلك، وحدث التناطح بين المدرعات الإسرائيلية والمدرعات المصرية،

واكتشف المصريون أنهم متفوقون، ... بل وحطموا للإسرائيليين أكثر من ستين دبابة.

وأخبر باف قيادته بأنه غير قادر على اختراق هذا الموقع فنصحوه بتركه.

لكن فى الصباح لم يجد القائد الإسرائيلى الطابور المدرع المصرى لأنه صدرت الأوامر للقائد بالإنسحاب للغرب.

فامتثل للأوامر، وهو مذهول.

٧ - أيام حالكة

إثر هزيمة ١٩٦٧م سقطت رؤوس كثيرة، وأهمهما القائد العام وتم تغيير كثير من القيادات، وفقد الجيش المصرى طيرانه وكثير من أسلحته، واكتشف الجميع أن الكلام الحماسى لا ثمرة له، واهتز إبراهيم الرفاعى، فهو قد واجه إسرائيل، وهو متأكد من أنها تمتلك جيشا مهنيا، ولكنه ليس أسطوريا، فما سر هزيمتنا؟!

٨ - مواجهة مع الأب

الاثنان... أسدان جريحان
الحزن رسب فى حدقات العيون
الصمت اعتقل الكلمات فى الصدور.
خاف الأب على ابنه من الجنون
فى الشرفة أثناء تناول الشاى قال الأب بصوت خفيض
- تكلم يا ابنى... فأنا أخاف عليك من.........
- لماذا لم تكمل يا أبى؟!... قلها «الجنون»
- أنا أبوك... فهيا أفرغ ما فى صدرك
- إنه لهب يا أبى
- هيا انفخه قل إنى استمع - لماذا حدث ما حدث يا أبى؟
- حدث ليذكرنا بأن الثقة ليست بديلا عن المراجعة، ومصلحة الصديق ليست بديلا عن مصلحة الوطن
- وماذا أيضا يا أبى؟
- والخبز ليس بديلا عن الحرية
- زدنى يا أبى
- السلطة المطلقة مفسدة مطلقة.
- اكمل يا أبى فالجرح عميق
- يجب أن نكون أقوياء كأفراد قبل أن نكون أقوياء كدولة

– يا أبى... أنا بعيد عن السياسة، وحرصت على أن أكون جنديا مهنيا... فحدثنى عن السياسة.

– الأمن كان خطأ لأنه كان أمن أفراد على مناصبهم وليس أمن أمة على مستقبلها.

– الأمن... وجهاز أمن الدولة... والمخابرات... ألم يكن كل هذا خطأ؟!

– وجود الأجهزة ليس خطأ، لكن الخطأ فى توجهاتها

ونستطيع أن نقول من أسباب الهزيمة هى الوصاية التى مارستها أجهزة الأمن على عقول الرأى العام.

– وماذا أيضاً؟

– واستبدلنا حكم المؤسسات بحكم الفرد والمصلحة والهوى.

وأنت كرجل متخصص... يمكنك أن تخبرنى بالوضع فى الجيش

– القادة غير مؤهلين.

– وغير ذلك؟

– هل تعلم يا أبى أنه لم يكن هناك تدريب على مستوى الفرقة والتدريب كان على مستوى السرية فقط، والأهم أننا لا نعرف شيئا عن عدونا، ـ وغير ذلك؟

– انصراف اهتمامات الجيش إلى مصالح بعيدة عن الجيش مثل إدارة النقل العام، والشركات، والحراسات، وتدخل الجيش فى كل شىء إلا التدريب، والدراسة واكتساب المعرفة بل والشىء المثير

للجنون أن هناك من درس... وتدرب... واكتسب المعرفة... وأبعدناه عن الجيش.

– السؤال الآن يا بنى... هو هل نستطيع أن نقف مرة أخرى وهذا هو ما يعرف كينونتنا... هو الوقوف بعد السقوط.

– أنا متأكد من ذلك يا أبى...، والأيام القادمة ستجيبنا على هذا السؤال.

٩ - حادثان . . . فى طريق الثقة

١- موقعة رأس العش

فى صباح أول يوليو ١٩٦٧.

قبل أن ترسل الشمس أشعتها الحارقة.

وأمواج البحر تئن عند الصخور بكاء على الرجال الذين ضاعوا فى متاهة الصحراء . . . وانتهت حياتهم عبثا.

ظهرت بوادر الدبابات.

دبابات جاءت لتحكم الحصار على الجيش المصرى، وتسد الأفق عند منافذ سيناء.

فقد تحركت الدبابات الإسرائيلية من القنطرة شرق متجهة نحو بورفؤاد، فقد تنبه العدو إلى أنه لم يستول على هذه المدينة، وأن هناك نسمة هواء . . . تتسلل من فرجة الزمن لمد الحياة فى جسد الجيش المصرى.

وصل الطابور الإسرائيلى المكون من ثمان دبابات وأربع عربات نصف جنزير وثلاث عربات جيب إلى المنطقة المقابلة لقرية (الكاب) والتى تبعد عن بورفؤاد أربع وثلاثين كيلو متر.

وصل الخبر إلى شباب المقاومة فى بورفؤاد، فأعدوا حفرا ومتاريس للمقاومة، وانتظروا.

مازال الجيش المصرى يجمع فى أفراده، ويضمد جراحه،

ويتحسس جسده، وهناك وحدة مدفعية هزيلة ترابض فى الغرب.

سرب من الطيور يفر فزعا من الشرق

عرف إبراهيم الرفاعى وجنود الصاعقة بتحرك الطابور الإسرائيلى.

جاءت الأوامر بالتصدى لهذا الطابور.

الطابور الإسرائيلى وصل إلى قرية التينة... وتوقف مستطلعا ابتسم قائد الطابور... استهزاء، فقد انتهى المصريون تماما، كانوا ظاهرة صوتية... وانتهت، فلنتحرك، ولن نقف إلا فى بور فؤاد.

تقلصت المسافة إلى بورفؤاد أصبحت ثمانية عشر كيلو. وهنا انطلق مدفعان من الغرب يصبان حممهما.

تعاملت الدبابات الإسرائيلية مع المدفعين بعنف القوى الذى يكيل الضربات الأخيرة للضعيف المنهزم.

■ لكن المدفعين لم يصمتا.

واندفع لنش يحمل إبراهيم الرفاعى وعدد من قوات الصاعقة إلى الضفة الشرقية، وكان اللنش مزودا بالصواريخ المضادة للدبابات.

هلل شباب المقاومة لرجال الصاعقة.

وأسرع إبراهيم بتكوين تشكيلات لصيد الدبابات

فى المساء تحرك طابور الدبابات إلى منطقة رأس العش، وفرشوا طريقهم بالنيران.

والرجال صامتون.

أعطى الضابط الإسرائيلى إشارة للطابور بالتقدم، فقد حرقت النيران كل مقاومة ممكنة.

وفى لحظة انطلقت الصواريخ والقذائف.

انفجرت ثلاث دبابات لترتفع هالات النيران إلى السماء، ويغطى الدخان كل شيء.

وانطلق (فتحى) شاب من شباب المقاومة نحو الدبابات الإسرائيلية.

شيء خارق يدفعه، ويلهب دماءه، ولا يرى شيئا أمامه سوى الدبابات، ويتسلق دبابة (وهذه أول مرة تحدث) ويقذف بقنبلة داخلها، ويقفز، ويختبئ، وتنفجر الدبابة، ويعود فتحى إلى المجموعة، ويصر عل أن يعد كوب شاى على ضوء النيران وأصوات المدافع.

ذهل القائد الإسرائيلى من المقاومة، واتصل بالقيادة طالبا العون، فجاءه صوت ممتلئ بالدهشة يسأله: ما حجم القوة التى تواجهها؟

- خمسون رجلاً

- أسأل عن عدد الدبابات

- لا يوجد

- لماذا تطلب مدداً؟!... فلتمر على جثثهم بالجنازير.

- أنا لا أراهم

– سأرسل لك أربع دبابات أخرى

– أرسل الطيران أفضل

– سأرسل لك الدبابات وعدداً من العربات المجنزرة.

وأصبحت القوة عشر دبابات وعشرين عربة مجنزرة فى مظاهرة للقوة والنيران... تقدم الطابور الإسرائيلى، وهو يحرق كل ما حوله وأمامه.

و... انفجرت دبابة... وارتفعت صرخات الإسرائيليين.

– أين هم... هؤلاء المصريون؟!

لقد زرعوا الأرض ألغاما!... متى حدث هذا؟!

أحضروا كلاب الحرب لكشف وتدمير الألغام ليتسنى لنا سحق عظام هؤلاء المحاربين.

وجاءت الكلاب، وانفجرت بعض الألغام، وانبلج الصباح والقائد الإسرائيلى يبحث بمنظاره عن المقاومين فلا يجد أحداً فيتقدم الطابور ببطء وحذر.

الصواريخ تظهر من الحفر... وتنطلق لتدمير ثلاث دبابات.

ويصرخ القائد الإسرائيلى... ما هذا؟!

فى المساء سيفتقدون الرؤية، ونكتسحهم ولن نتوقف إلا فى بورفؤاد... لكن بعد أن نسوى رأس العش بالأرض.

فىَ المساء تسلل رجال الصاعقة إلى الدبابات، وواجهوا الإسرائيليين بالسلاح الأبيض، ووضعوا القنابل اليدوية فى أبراج

الدبابات، ... وانفجرت أربع دبابات.

وصرخ الضابط الإسرائيلي: ارسلوا الطائرات... أنا لا أستطيع الحركة أو التقدم أو أي شيء، أنهم لا يخافون من أي شيء.

- اطمئن سنرسل الطائرات.

وجاءت ست طائرات... تقذف صواريخها على مواقع الرجال.

لكن ما هذا؟ هناك مدافع مضادة للطائرات تتعقب الطائرات الإسرائيلية... التي ما لبثت... أن ابتعدت مؤثرة السلامة.

وبدأت الدبابات الإسرائيلية في التقدم ببطء

وانطلقت المدافع من الغرب تضرب بقوة... ثم انطلقت الصواريخ لتصيب ثلاث دبابات.

فتوقف الضابط الإسرائيلي، وقال للقيادة: تكفي هذه الخسارة من الرجال والدبابات.

فهي خسارة لا تحتمل

- عد من حيث أتيت، وسنأتي لهم في وقت آخر.

ولكنهم لم يتجرأوا على أن يعودوا مرة أخرى

موقعة رأس العش ضمدت جروح الجنود المصريين، وشعروا أنهم هزموا من قبل في معركة عبثية.

٢- إغراق المدمرة إيلات

فى ٢١/ ١٠/ ١٩٦٧م

وصلت الأخبار إلى إبراهيم الرفاعى.

خرج إلى الصحراء... يناجيها... فهى التى شهدت انكسارهم ورمالها أيضا كانت شاهدة على معركة رمانة، ومعركة جبل لبنى التى حطم فيها الأبطال المصريون ٦٨ دبابة بدون أى غطاء جوى، وفوضى القيادة والأوامر.

ومعركة رأس العش... كانت معركة إثبات ذات...

وها هى اللنشات البحرية... تتحدى أكبر مدمرة إسرائيلية دخلت المياه المصرية... وهى تتيه فخرا وغرورا وتحديا وتخرج لها الزوارق، وتطلق صواريخ بحرية... لتهز المدمرة ثم صاروخ ليدفعها للأعماق... ويغرق أكثر من مائة وعشرين جنديا إسرائيليا.

إبراهيم الرفاعى فى الصحراء يكاد يصرخ....، وهو يقول ها نحن موجودين، وما حدث كان استثناء....،

وتمنى لو كان يقود أحد اللنشين، وكأن روحه الجبارة تود أن تنتشر مع كل الجنود، وفى كل رمال الصحراء.

وُلِد قرار نارى فى روح إبراهيم الرفاعى يجب ألا يهنأ الإسرائيليون بانتصارهم الذى كان نتيجة طبيعة لقيادة ضعيفة ليس لها أى معرفة بالعلوم العسكرية، ولا تؤمن بالتدريب، ولا تعرف أى

معلومات عن العدو.

... صرخ إبراهيم... وكأنه يخلص روحه من كل خيوط الوهن واليأس والندم واعتنق الإيمان والشجاعة

١٠ - إبراهيم الرفاعى والمجموعة (٣٩)

السماء مغطاه بلون أبيض متحرك

أسراب الوز البرى وأسراب الطائر أبو قردان تحلق فى السماء تنشر البهجة والفرحة للحياة.

ابتسم (عم بيومى) الفلاح العجوز ابتسامة شاحبة، وهو يركب حماره الهزيل قاصدا إلى حقله، وكلبه يتبع الركب المكون مع عم بيومى وزوجته أم إبراهيم وحماره (الأبجر) وكلبه (عنتر).

ابتسامته شاحبه لأنها صادرة من قلب لا يحتوى إلا أرض جرداء مرفوعة فيها رايات سوداء منكسة منذ يونيو ١٩٦٧م.

تنهد عم بيومى... عندما وقعت نظراته على الضابط (إبراهيم الرفاعى)... إنه يعرفه، ومن لا يعرف الرفاعى؟! هذا ضابط غريب، لا يعرف بيومى كيف احتفظ هذا الرجل بكل هذه الثقة، والحيوية.

إنه دائما يجرى أمام عدد من الشباب يتدرب معهم كل صباح يسابق الأوز البرى فى البكور والصياح.

فهو يصيح فى الشباب... هنا... هوب... هوب.

قال أحدهم إنه يجرى عشرين كيلو كل يوم

وأقسم فلاح آخر إنه رآه مع مجموعته يزحفون فوق الأشواك، ويقفزون فوق الصخور.

وصرخت فلاحة عندما رأتهم يتشاجرون بالسلاح الأبيض لكن

زوجها طمأنها بأنهم يتدربون، وقتها مصمصت المرأة وقالت هامسة، وهى تدارى وجهها «وكان فين ده كله من شهرين؟!».

وسحبها زوجها بعيداً، وهو يلتفت حوله.

أما عم بيومى... فإنه حدّق فى وجه إبراهيم الرفاعى طويلا وشعر براحة، فوجه إبراهيم يوحى بالثقة صاح بيومى: صباح الخير يا حضرة الضابط.

– صباح الخير يا عم بيومى.

– إن شاء الله يومهم قريب.

– إن شاء الله.

وغاب إبراهيم الرفاعى عن الأنظار مع رجاله.

بدأت العربات الروسية (الزل) حاملة الجنود تتوافد على الضفة الغربية، ولذلك انتشرت الخنادق والملاجئ، وأصبحت قوات الجيش ترابط فى كل مكان.

هناك عمل جاد... من القادة الجدد. فى تكوين جيش مقاتل، لا جيش مظاهرات وهتافات وخطب حماسية.

وأصبح وجه الفريق عبدالمنعم رياض وجها مألوفا، يراه الجميع يتفقد الكتائب وأسلحتها، ويقف مع الضباط ويحى الجنود، هذا رجل هادئ، مطمئن، كأنه يخط المستقبل بيده، حتى وزير الحربية المتجهم دائما الفريق محمد فوزى رجل لا يبتسم، لكنه دؤوب، وصارم، ويعمل بلا كلل لإعادة تكوين جيش قوى، ويحاول أن يبث

الثقة فى الجميع، وهو مطمئن لنوعية الجنود الجدد... فهى نوعية مثقفة، وتستطيع أن تستوعب الأسلحة الحديثة.

قال قائد الجبهة اللواء أحمد إسماعيل لإبراهيم الرفاعى: أريدك أن تكون مجموعة... لا تخضع لنظام الجيش، ومسئوليتها ستكون تحت مسئوليتى أنا شخصيا، وأنت القائد.

– أنا... فعلا كونت مجموعة قتالية.

– أريدها فى مهمة انتحارية.

– أعشق المهمات الإنتحارية.

– ألا تسأل ما هى المهمة؟!

– سأنفذها مهما كانت.

– استعد للعبور إلى سيناء. وضع إبراهيم الرفاعى لمجموعته شعار (رأس النمر)، واسم المجموعة (٣٩) عمليات خاصة.

أراد سبعة معه فى مهمته الانتحارية.

سأل أفراد المجموعة: هناك عملية انتحارية، أريد سبعة منكم، من يرغب فى المجىء معى؟

الجميع رفعوا أيديهم.

بصعوبة اختار سبعة مع وعد منه للآخرين بالذهاب معه فى المرات القادمة.

طائرة هليكوبتر حطت بهم فى سيناء.

الدليل قادهم إلى منطقة الشيخ زويد.

القطار لم يأت بعد، عليهم أن يضعوا الألغام بين القضبان لتفجير القطار الذى سينقل الأسلحة المصرية التى تركها الجيش فى سيناء.

انتظر بعضهم فى ملجأ.

وذهب إبراهيم مع اثنين ودليل إلى مكان آخر لتشوين الذخيرة.

وزرع الرفاعى ألغامه، ووضع متفجراته، وأوصلها بشبكة من الأسلاك والمبدئات، ورأى أن يكون تفجير القطار والذخيرة فى وقت واحد.

وانتظر مع رجاله خلف الصخور إلى أن سمع صوت القطار.

فألقى تعليماته لرفيقيه، وأسرع إلى مكان القطار، يريد أن يشاهد بنفسه لحظة انفجاره.

جاء القطار، وحملت الأسلحة، وصعد الجنود الإسرائيليون همس إبراهيم: (الصيد الآن وفير).

فأعطى الإشارة للتفجير.

صرخ القطار، وصرخ الصهانينة، وصعد الدخان للسماء كما ارتفعت ألسنة النيران عالية. وما لبثت الانفجارات أن توالت من أماكن تشوين الذخيرة وغرس إبراهيم علما يرفرف فى أرض سيناء.

وكان رأس النمر يضحك سعيداً بأول عملية للمجموعة (٣٩) فى أرض سيناء.

فى مقرهم المتغير جلس إبراهيم وسط المجموعة (٣٩) وشرح أحدهم ما حدث بالتفصيل.

أراد إبراهيم أن يزرع الثقة فى نفوسهم، فأفاض فى الوصف وفى المساء - سمع إبراهيم همسات تسرى مع النسيم تشيد بما قامت به فرقته فى سيناء.

فقرر أن يلتزم بالصمت فى كل العمليات القادمة.

فى الصباح السماء مغطاة بلون أبيض متحرك

أسراب الوز البرى، وأسراب الطائر أبوقردان تحلق فى السماء تنشر البهجة والفرحة بالحياة.

ابتسم عم بيومى ابتسامة واسعة، وهو يرى إبراهيم الرفاعى يجرى مع مجموعته.

وصاح: صباح الخير يا رفاعى.

صباح الخير يا عم بيومى.

ضحك بيومى وقال: يا رفاعى مدد

- ماذا؟

- أرجوك انتظرنى.

وتقدم عم بيومى بحماره من إبراهيم، وقال لأحد الجنود

- أنزل هذه من على الحمار

- وما هذه؟

- أرجوك أنزلهاكان إناء كبير ممتلئا باللبن

ضحك عم بيومى، وهو يقدم اللبن لإبراهيم ومجموعته، وهو يقول: أرجوك أن تقبل أنت والأبطال هذا اللبن

وفى المرة القادمة سأذبح لكم جدياً.

- بعد الانتهاء من التدريب الشاق

أخرج إبراهيم خطابا، وقال لرجاله، هذا خطاب من وزير الحربية إليكم يشكركم فيه على نجاح العملية.

- إقرأه يا أفندم

ابتسم إبراهيم، وقال: سيمر الخطاب عليكم، وليعتبر كل مقاتل أنه موجه له شخصيا.

كبرت المجموعة، وكثرت عملياتها، وأصبح الانضمام إلى الفرقة (٣٩) شرفا يسعى الجميع لنيله.

طلب إبراهيم الرفاعى من عم بيومى مغادرة القرية... بسبب غارات العدو، ابتسم الرجل العجوز ابتسامة شاحبة: الله يا بنى يدفع الناس بعضها ببعض وإلا فسدت الدنيا، والمقدر يكون.

- لا تلقوا بأنفسكم للتهكلة يا عم بيومى.

- التهلكه... هو ترك أرضنا يا ولدى.

- فلنأخذ بالأسباب، وسنحفر لك ملجأ فى البيت

واشترك إبراهيم الرفاعى مع رجاله فى حفر خندقا ليلجأ إليه عم بيومى وزوجته وحماره وكلبه

..... وفى هذا اليوم أكل إبراهيم ورجاله «فطير مشلتت ساخن» من صنع الزوجة التى تجاوزت الستين، ولكنها تشع بالحياة والحب.

١١ - من مذكرات مراسل حربى على الجبهة

كان الهدف من ذهابى إلى الجبهة هو عمل اتصال بين الجيش والمدينة لأن المدينة تفرغت للسخرية من الضباط، وتأليف النكات عليهم وهى طبيعة خاصة بالمصريين، فعندما يصبح الموقف عبثيا يلجأون للنكات والسخرية فى محاولة لفهم الموقف العبثى الذى يعيشونه.

ووصلت إلى الجبهة... الضفة الغربية من القناة فوجدت الجنود منتشرين فى كل مكان، وعربات نقل الجنود الضخمة (ماركة زل) تتحرك وهى ممتلئة بالرجال.

والخنادق والمتاريس... موجودة فى محاذاة القناة، والجيش فى طريقه لاستكمال سلاحه ومعداته.

قبل ذهابى، سألت أحد الضباط العسكرين عن أسباب هزيمة ١٩٦٧؟

فأجابنى بأن مسرح العمليات لم يكن مهيئا، لم أفهم وقتها هذه الجملة.

لكنى الآن عرفت أن لكل مدفع مكان وطريقة تمويه، ولكل دبابة خندق وطريقة تمويه، ولكل كتيبة خنادقها وطرق اتصالاتها، وكل الأسلحة تعمل متعاونة فى إطار خطة متفق عليها.

هذا ما رأيته عندما وطأت قدمى الجبهة، لكن ما أثارنى هو رؤية آثار الحرائق والحفر الناتجة من سقوط القذائف والدانات، لكن ما

زال هناك زرع أخضر... والقليل من الفلاحين، فقد هجر الفلاحون القرى... فالزرع والنماء لا يكون مع النيران والدخان. لكنى رأيت بعض الفلاحين الذين آثروا المكوث والزرع مهما كانت درجة الخراب.

رآنى أحدهم وابتسم وقال لى ببساطة وهو يرى ملابسى المدنية

– كيف حال والديك؟ هل قضيت إجازة طيبة؟

ظننى أحد الجنود، قلت له: أنا صحفى

لم يفهم شيئا.. قلت موضحا: أنا مراسل عسكرى.

دوائر الحيرة تقافزت على وجهه، ولمعت عيانه فى محاولة للفهم.

فاقتربت منه، وأخرجت له جريدة، وقلت له: أنا أعمل فى هذه الجريدة

ضحك، فقد فهم شيئا، ثم عاد للتجهم وسألنى: وماذا تفعل هنا، وأنت – «لا تؤاخذنى» ليس جنديا أو لك زرعة، وضعت يدى على كتفه، وقلت له: أنا هنا لأبرز بطولة الجنود و........

قبل أن أكمل، لمعت عيناه بالسرور، وقال: عليك بإبراهيم الرفاعى

– ومن يكون؟

– حقا أنتم آخر من يعلم، إنه النمر الذى يفترس الصهاينة، إنه جن، يعدى للبر الشرقى ليؤكد حقنا، ويعود دائما بحكايات...

مطمئنة

– إبراهيم الرفاعى؟

– نعم... رأس النمر

– هل هو العقيد أركان حرب إبراهيم الرفاعى.

– كل ما أعرفه – إنه هو البطل الذى يعدى كل يوم

– كل يوم؟!

– أنت لا تصدق؟! لك حق، لكن عندما تراه... ستتأكد من صدق كلامى.

– لكن أنت... لماذا لم تهاجر؟

– أنا أهاجر؟!. ونظر إلى حماره وكلبه وبقرته وزوجته العجوز وأشار إلى بيته، وقال:

– إنهم حياتى، والبيت بيتى، والزرع زرعى ولا حياة لى بعيداً عن هنا، وأنا أعيش بفضل رحمة ربى، وبحماية إبراهيم الرفاعى.

«إبراهيم الرفاعى» – اسمه يسرى مع النسيم، هل هو أسطورة؟! فنحن مغرمين بخلق الأساطير وتصديقها.، لكن هذا الفلاح الذى قابلته، واسمه "العم بيومى«إنه أسطورة... جاءت من أعماق التاريخ... رجل يحمل حكمة أختاتون وأمحوتب ويحب حماره وبقرته وزوجته وبيته... وزرعه وفأسه، ويحب إبراهيم الرفاعى.

وذهبت للقيادة طالباً رؤية إبراهيم الرفاعى ومعايشته.

وأخيراً رأيته، فى نهاية العقد الرابع من عمره، بسيط، واضح،

ملامحه حاده، خجول، كيف يكون البطل خجولا؟! هذا سؤال سأبحث عن إجابته، قارئ ممتاز، يقرأ القصص، ويحب نجيب محفوظ ويعتبره أديبا عالميا، كما يحب الكاتب فيدور ديستويفسكى مؤلف الجريمة والعقابَ والأخوة كارامازوف.

وما أذهلنى غرامه... بل عشقه للموسيقى الكلاسيك.

«من يكون هذا الرجل؟! الذى يقرأ الروايات ويعشق الموسيقى والجمال والهدوء، ويجيد الإنجليزية والفرنسية والروسية والعبرية، وما سمعته من الآخرين عن إقتحامه للخطر ومواجهة الموت، وضبطه المذهل لأعصابه وانفعالاته.

إنه رجل كله طلاسم، وعلىَّ أن أحلها.

هل هو معتنق لآراء نيتشه الفيلسوف الذى يعشق القوة؟

ومن أقواله «إذا فاجأتك العاصفة فلا تقاومها، وكن الوتر الذى يعزف الريح».

رأيت أن أسأله هذا السؤال: هل تحب الفيلسوف نيتشه؟

ابتسم بخجل «أخشى أن أقول خجل فتاه عذراء».

وقال بهدوء... وقوة: أنا قرأته... كما قرأت شوبنهاور، وهيجل وكانت فيلسوف الأخلاق النبيلة.... قرأت الفلسفة كثقافة وغذاء للعقل، أما حبى الحقيقى فهو للرسول عليه الصلاة والسلام.

– سمعت كثيرا عن عبورك للشرق، ومفاجأة الأعداء، ألا تخاف من الموت؟

- ستعرف الإجابة عن هذا السؤال بنفسك
- أنا؟!
- نعم، فالتخمين والظن والتفكير لا يوازى أبداً التجربة الحقيقية وأنت ستكون معنا فى المواجهة، لكن قبل ذلك ستخضع لتدريبات شاقة... كفرد من المجموعة (٣٩)

فرض إبراهيم الرفاعى رعايته وحمايته علىّ، بصفتى فرد ضعيف غير مؤهل... لمواجهة الخطر، فأنا لم أجرِ فى حياتى مائة متر فكيف أجرى عشرة كيلو متر يوميا؟

- ها أنا أكتشف نفسى

وهذا ما قاله إبراهيم الرفاعى، إن الإنسان لا يكتشف نفسه إلا فى مواجهة المواقف المصيرية.. مواقف «تكون أو لا تكون».

وأنا الآن فى هذه المواجهة، والرفاعى يقول إن الخطر والتدريب المستمر يوقظ الشخصية النائمة.

فكل منا له شخصية أخرى عملاقة نائمة... وتستيقظ هذه الشخصية العملاقة فى مواجهة التحديات وأهم التحديات هو الموت.

وخضعت لتدريب شاق، والجميع يقولون إن نقطة عرق زيادة فى التدر يب، ستفرق بين الحياة والموت. والتدريب يشمل الجرى، وفنون القتال، وتدريبات رياضية والسباحة والغطس والتجديف، وتعدية الخليج فى وقت النوة. وارتفاع المياه كالجبال، والقفز من

الطائرات الهليكوبتر وتسلق الجبال، بجانب استخدام الأسلحة، ودقة التصويب وتدريب قاسى أحالنى إلى كائن من العضلات، يمتلك ثقة لا نهائية فى قدراته، والأهم. أنه يشعر بالقوة المعنوية التى تشع فى جسمه وفى عينيه وفى تفكيره.

بعد ثلاثة أشهر من التدريب، وبعد ممانعة كبيرة من الرفاعى سمح لى بمرافقتهم فى مهمة ليلية، وقال لى: ستكون هذه المهمة... سهلة وبسيطة... لأنها مهمة استطلاع فقط، فعليك أن تكون معى دائما، ثم قال لى بلهجة أم تخاف على إبنها

– وحاذر أن تبتعد عنى ولو لخطوة واحدة.

الساعة الرابعة فجراً

الكون فى حالة سكون – فهى اللحظات التى تسبق ولادة اللون الفضى.

وعربة الفجر الفضية مازالت تقف عند بوابة الليل السوداء، والنجوم تنبض بالنور والحياة.

هناك من يهز جسدى

فتحت عيناى، رأيته مبتسما، وهمس: هيا ستعدى معنا صوته... دافئ.... يذوب حنانا... كأنه يعدنى بميعاد عاطفى خاص.

وقفت بسرعة.

قال لى: ارتدِ خوذتك، والحذاء، وانتظر.

سمعت نباح الكلب يأتى من بعيد.، وخرجت من الملجأ، فرأيت

سربا من الأوز البرى يطير فى الأفق وكأنه يبشر الكون بمولد الفجر.

وأصوات وشوشات المياه تأتى من بعيد، وتنفست بعمق وأنا أشعر بشيء سحرى يشع فى داخلى

تُرى هل سأعرف لغز إبراهيم الرفاعى؟

على خط القناة سرى الهمس بأن هناك مجموعة من الفرقة (٣٩) ستعدى للضفة الشرقية حالاً.

توترت الأعصاب، وتحفزت، لمعت العيون، أخرج كل جندى سلاحه من خندقه، بطاريات المدفعيات أزالت شبكات التمويه، ووجهت المدافع للضفة الشرقية.

اختفى صوت نباح الكلاب، أو اختفى إحساسى بها، لم تلتقط أذنانى سوى صوت هدير الموج يعلو ويصخب.

اختار إبراهيم الرفاعى المنطقة التى بدأ منها القاربان.

تيقنت من الموت غرقا، فهذه القوراب الصغيرة لا تستطيع مقاومة الأمواج العاتية.

لكن المقاتلين السبع وفى مقدمتهم إبراهيم كانوا يجدفون بدراية.

وفرض الصمت المتجهم سلطانه.

عيناى لا تطالعان إلا جمر الحماس الذى يطوق جباه المقاتلين.

بعد فترة، وصل القاربان إلى الضفة الشرقية.

نزل من كل قارب أربع.

ثبتنا مقدمة القاربين، وتحركنا.

برودة الصباح أنعشت روحى وجسدى وجدنا دليلا منتظراً، ومعه أربع جمال.

سار الدليل أمامنا بحماره الهزيل، كنت أنا فى وسط القافلة هكذا قرر إبراهيم الرفاعى لحمايتي؟ وأوصى بى من كان أمامى وأيضاً من يسير خلفى.

سيناء الجبال الشاهقة والوديان المتسعة، والمدقات الملتوية.

عصفور صغير توقف على أحد التلال وشقشق مرحبا بأهل وطنه صوته قوى غير ملائم لجسده، وكأنه وجد قوة أكبر عندما رآنا.

غزلان ترعى فى الوادى، رفعت رؤوسها الجميلة... ونظرت إلينا طويلا، وعادت للرعى كأنها اطمأنت إلينا.

بعد مسيرة ست ساعات أصر الدليل على التوقف وتقديم الطعام لنا وكانت المفاجأة... كل المقاتلين صائمون، فقد كنا فى رمضان، فقال الدليل: نفطر معا إن شاء الله.

- إن شاء الله.

وصلنا إلى مطار صغير للعدو، فقد أنشأه بعد الحرب.

نزلنا، واختبأنا بين الصخور، وأصر إبراهيم الرفاعى على أن يقوم بمهمة الاستطلاع منفرداً.

غاب عنا... أكثر من ساعتين، وقال: لا يوجد هناك سوى عشرة جنود، وطائرتان، وبعض المنشآت، إنه صيد سهل لابد من

اقتناصه.

وقرر أن يذهب خمسة معه، وانتظر أنا مع أحد المقاتلين لتغطية العملية، أما الدليل فقد أمره إبراهيم بالانتظار بعيداً... فى أحد الوديان.

كنت أود الذهاب معهم، لكن إبراهيم حاسم فى أوامره، فقد قال لى – دورك فى الحماية... ضرورى لتأمين العملية، وعليك أن تتدخل فى الوقت المناسب.

وذهب المقاتلون الست، وتركوا لى الصمت والقلق والظنون يعبثون بأعصابى، بعد فترة سمعت صوت إنفجارات وطلقات، ورأيت دخانا كثيفا يملأ السماء.

تحفزت وصوبت الرشاش... وانتظرت إلى أن رأيت المقاتلين قادمون فرادى وهم يجرون فى خط متعرج.

وكان إبراهيم آخر القادمين.

همس أحدهم: تم قتل الجميع وتدمير المنشآت الموجودة، وتفجير الطائرتين.

ابتسم أحدهم، وقال: وجهك... مبروك علينا (يا مباشر) لكنى شعرت بغصة لأنى لم أشترك معهم

فى وقت الفطور: سألت إبراهيم عن إحساسه وقت أداء العملية.

بصوت هادئ عميق قال: عند البداية شعرت بالخوف من المفاجآت، وما أن دخلنا إلى المطار حتى تملكتنى اللحظة،

وأصبحت ملكا للزمن وللحدث، فتصرفت بشكل تلقائى، هل تعرف حركة قديمك مع تجهيزات السيارة؟! هكذا كنت، فالهدف واضح والسلاح معد، وأنا والرجال والسلاح مدفوعين بنبض الزمن، والدوافع الفطرية للمقاومة وحب الحياة.

التدريب المستمر، والعمليات المشابهة... قد يضعفان الرهبة فى الصدور ويجعلان الحركة أسرع فى مواجهة العدو، والقرار سريع فى تنفيذ الخطوة التالية.

هى حرب مرهونة بأدق اللحظات فى الزمن... والحركة... والقرار.

عندما عدنا للضفة الغربية قابلنا الجنود بالترحيب، وإطلاق الرصاص ورقص أحدهم على إيقاع تصفيق آخرين، بل وزغرد آخر. وانطلق جندى صعيدى... بموال... والغريب أنه كان موالا حزينا يتحدث عن البعد والفراق.

طالب جندى الصعيدى بالكف عن الغناء الحزين، لتنطلق أغنية مرحة تشيد بالنصر.

جاء العقيد أركان حرب إبراهيم الرفاعى، وأمرنا بالإنصراف إلى الدشم والخنادق والمخابئ فورا.

وأسرعنا إلى ملاجئ الأمان، وهو واقف لم يتحرك إلا بعد اختفائنا.

وما هى إلا دقائق حتى ظهر الطيران الإسرائيلى، وطاردته

المدفعية المضادة للطيران، فألفى حمولته كيفما اتفق.

وعرفت من المقاتلين أنه عقب كل هجوم على الضفة الشرقية يظهر الطيران الإسرائيلى فى محاولة للانتقام.

بل إن المقاتلين يقيسون درجة نجاح كل عملية بدرجة انتقام الطيران الإسرائيلى.

١٢ - الجنرال الذهبى

بالرغم من غاراته المتكررة والناجحة على الضفة الشرقية، فإن عينيه تتابعان ما يحدث من بناء لقوة الجيش المصرى.

ولاحظ أن الوزير الجديد الفريق محمد فوزى... يعتمد على إشعار الجميع بالجدية المبالغ فيها، ويزور الجبهة، ويستمع إلى الضباط، ويحدث الخبراء الروس فى شأن استكمال المعدات الحربية.

أما رئيس الأركان الفريق عبدالمنعم رياض، فهو رجل عسكرى غزير العلم، درس الاستراتيجية العسكرية الحديثة فى إنجلترا وفى الاتحاد السوفيتى، وكان لا يكتفى بدراسة فرع واحد، بل كان نهما للعمل وللدراسة والمقارنة والمعرفة حتى أنهم لقبوه فى روسيا «بالجنرال الذهبى».

هذا الجنرال الذهبى كان حريصا على معرفة الضباط والجنود، وحريصا على التدريبات، ووضع المتفوقين فى الصدارة، ويضع الخطط فى إعداد الجيش، ويذهب بنفسه إلى المواقع لمعرفة درجة التنفيذ.

هذا الرجل لم يتزوج، ووضع كل اهتمامه وخبراته فى إعداد الجيش واختار من يصلح لقيادة الفصائل والسرايا والكتائب واللواءات والفرق، وعمد إلى تكوين مجلس دفاع قومى... يجتمع

بالخبراء فى الاستراتيجية والتكتيك ويدرسون خطط تجهيز الجيش وإعداده والدفاع وتحرير الأرض.

بل إن رئيس الدولة جمال عبدالناصر... شارك وزير الدفاع ورئيس الأركان فى المرور على الجبهات، ودراسة الواقع بشكل عملى وعلمى حتى إن الجنرال الذهبى كتب فى مذكراته كلمة تثير الانتباه وهى «قد يجبرنا الأعداء على سلوك طريق، كان يجب أن نسلكه من قبل».

فى موقعه فوجئ إبراهيم الرفاعى به بالجنرال الذهبى، أدى التحية وهو مرتبك، حتى إن الجنرال ابتسم، وقال له: من يرى ارتباكك يا إبراهيم لا يصدق أنك النمر الذى يثير الفزع فى الجنود الإسرائيليين!!

- أنا يا أفندم؟

- أجلس يا إبراهيم، أريد أن أتناول الشاى معك.

- معى أنا؟!

- ماذا يا إبراهيم؟! هل لا يوجد لديك شاى؟

- شاى يا أفندم؟!

اتسعت ابتسامة الجنرال الذهبى، وقال: اسمع يا إبراهيم.- نعم يا أفندم.

- أنت ترى مدى المجهود الدائم الذى نبذله فى إعداد الجيش...

- مجهود عظيم يا أفندم.

– وتعرف أنها كنت مهمة مستحيلة... مثل المهمات التى تقوم بها أنت.

– أنا؟!

– مهمة إعداد جيش مهزوم، وبث الثقة فيه لمواجهة الجيش الذى انتصر عليه، وفى ظروف قاسية.

صمت إبراهيم، وهو يشعر أن الجنرال يمهد لتكليفه فى مهمة ما واستأنف الجنرال الذهبى حديثه.

– فى الحروب السابقة – كانت المواجهة بيننا بدون موانع طبيعية لكن الآن، أصبح بيننا وبين العدو قناة السويس تعمل لصالحه وضدنا، وصحراء سيناء، واستثمرها العدو لصالحه فى إنشاء المطارات الحربية، ومواقع الدبابات المحصنة وحقول الألغام... وبهذا حول رمال سيناء إلى رمال قاتلة لنا.

استمع إبراهيم الرفاعى إلى حديث الجنرال مبهوراً.

وصمت الجنرال قليلا، ولمعت عيناه، وهو يقول:– ونحن نعد الجيش لمواجهة كل هذا، وبذلنا مجهوداً جباراً

– الجميع يشهد بذلك

– والعدو له معرفة بكل ما يجرى، وقد وضع صواريخا لا نعرف نوعيتها فى الضفة الشرقية، وهى معدة لإطلاقها مرة واحدة لتكون شبيهة بضربة الطيران التى وجهها فى الحرب القريبة.

صمت الجنرال الذهبى مرة أخرى.

صمت إبراهيم، وهو يشعر بأن المهمة فى طريقها للوضوح، لكنه انتظره، قال الجنرال الذهبى: ونحن لن نسمح بتكرار ما حدث فى١٩٦٧م.

ولمعت عيناه وهو يقول: ولن نسمح بضربة إجهاض.

- ولن نسمح بأن يعيدنا أحد للوراء.

- ولن نسمح....

- هل تريدنى إحضار الصواريخ الإسرائيلية؟

لمعت عينا الجنرال، وابتسم ابتسامة يخالطها شيء من المرارة، وقال

- لن تستطيع يا بنى

- بل أستطيع

- يكفى أن تعرف كل ما يتصل بهذه الصواريخ، كل المعلومات الممكنة؟ وبعدها سنرى.

- متى تريدنى الذهاب؟

- متى تستطيع الذهاب؟

- الآن... وفورا

- لا...، أعرف مدى حماسك، وعظيم قدراتك، لكن علينا بالاستطلاع أولاً، ومعرفة المكان ودراسته ووضع الخطط اللازمة والتدريب عليها ثم التنفيذ.

جمع إبراهيم الرفاعى كل المعلومات عن أحد مواقع الصواريخ،

ودرس الخرائط التى أمدته بها المخابرات الحربية، وأشرك المقاتلين فى الدراسة، ثم تدربوا على موقع مشابه، ووضع الخطة اللازمة، وقسم الأدوار، وأعاد التدريب مرات - لكى تصبح حركة المقاتل حركة غريزية مألوفة ثم قرر التنفيذ.

كان يوما قمريا، فى الساعة الثانية صباحاً، قرر أن يصطحب أربعة مقاتلين فقط، مما زاد من صعوبة العملية، فالجميع يريدون الاشتراك، وخاصة المراسل الحربى، وأيضاً هناك ضابط صغير يحب الرفاعى حبا يملك عليه روحه، فقد وجد فى إبراهيم نموذجا كان يتمناه، فلم ير من قبل هذه الرفعة فى الأخلاق، والشموخ فى مواقف الكرامة، والذكاء فى اتخاذ القرار المناسب، والدقة فى التنفيذ والجرأة فى المبادأة والاقتحام، والتواضع فى الحياة اليومية بجانب ذلك غزارة فى العلم، وفيض فى العاطفة والحنو.

ولذلك فإن الضابط أسامة التصق بالقائد الرفاعى، ولاحظ الجميع أن أسامة يحاول أن يتقمص شخصية الرفاعى، وكان هذا يثير الابتسامات والنكات بين المقاتلين.

واضطر إبراهيم أن يأخذ أسامة والمراسل العسكرى عبده مباشر. قبل أن يتنفس الصباح بدأت المجموعة مغامراتها فى مياه القنال. فى الضفة الشرقية سار الأبطال حذرين.

وصلوا إلى الموقع، حرص إبراهيم على تقسيم المجموعة إلى مهاجمين ومدافعين، وكان هو أول المهاجمين، وترك أسامة

والمراسل للحماية والدفاع.

ونظر إبراهيم نظرات خاصة إلى أسامة، وفهم أسامة معنى النظرات فهى تقوله له... أنت من نعتمد عليك.

كان الموقع محاطا بأسلاك شائكة، وما أذهلهم عدم وجود حراسة فقد كانت الصواريخ مخبأة، كما كان الجنود فى حالة غرور واستهانة بالمصريين، الهزيمة التى حدثت فى ٦٧ جعلت الإسرائيلين يتيهون فخراً وغروراً ويمتلئون استهتاراً بالمصريين، ويعتبرونهم ظاهرة كلامية.

إبراهيم لم ينخدع فى أن المكان خال من الحراسة.

وقرر استطلاع الموقع قبل أن يقتحمه.

ولم يهدأ إلا عندما رأى الجند متجمعين فى أحد المبانى، ومعهم بعض النساء، من الواضح أنهم يحتفلون بشىء ما أو بشخص ما.

فاطمأن، واقتحم الموقع بعد إزالة السلك الشائك، ووصل إلى الصواريخ هو ورفاقه، وأخذ يقرأ بياناتها ويكتب بعضها، ثم توقف وقرر أن يأخذ صاروخا أو اثنين؟ وفك أحد المقاتلين (وهو مهندس كهربائى) التوصيلة الخاصة بالصاروخ، واستطاعوا أن يحرروه من قاعدته ثم كرروا نفس العمل فى صاروخ آخر، وحملوا الصاروخين، وتأهبوا للخروج.

فى هذه اللحظة شعر أحد الجنود الإسرائيليين برغبة فى القىء، وذهب إلى الحمام، وقال أحد الضباط: فليلق أحدكم نظرة على

الموقع سألت فتاة بانزعاج: لماذا؟ هل تتوقع زيارة من المصريين؟!
– المصريون... ها... إنهم نائمون، ثم أنهم لا يعرفون شيئا عن هذه الصواريخ.
تدخل ضابط آخر قائلا: ولنفترض أنهم عرفوا، فهناك فجوة كبيرة عندهم بين المعرفة واتخاذ القرار، إنهم كسالى، أنا لا أصدق أنهم أصحاب حضارة.
– أى حضارة يا ليفى؟! أنت تعرف أن الحضارة الفرعونية قامت بفكر اليهود.
– من الأحوط أن ألقى نظرة.
وخرج الضابط الإسرائيلى من المبنى، واتجه إلى مكان الصواريخ فخيل إليه أنه يرى أشباحا تحمل أشياء.
وجه نور بطاريته نحوهم.
الأشباح اختفت... لكنه متأكد من سماع شىء، ما هذا هل هو تأثير الخمر، أم مجرد هلاوس؟! أم حقيقة؟! من الأفضل أن أتأكد.
شرع رشاشه، وهرول نحو مكان اختباء الأشباح.
هجم إبراهيم عليه من الخلف، وشل حركته، ثم أدار رأسه سأله الضابط: من تكون؟ وماذا تريد؟
– النمر، وأريد حياتك.
وضغط إبراهيم على عنق الضابط الذى صرخ وهو يفارق الحياة.
الصرخة وصلت إلى أسماع المحتفلين.

توقف الجميع عن الحركة، وأسرع الضباط والجنود إلى أسلحتهم وخرجوا، وصرخت صفارات الإنذار، ووجهت الأضواء الكاشفة إلى كل مكان.

انتابهم الذعر عندما رأوا جثة الضابط القتيل.

طلبوا من ضابط الاتصال تبليغ القادة، والتشديد على إرسال طائرات هليكوبتر للبحث والتعقب وقتل المهاجمين.

أسرع الضباط والجنود إلى السيارات وخرجوا وهم يطلقون الرصاص فى مختلف الاتجاهات، وإبراهيم ورفاقه يجرون، وقد حرص إبراهيم على أن يترك المقاتلين الذين يحملان الصاروخين يسيران فى المقدمة، وهو مع آخر أخذا وضع الحماية لهما.

توقف المهاجمون الإسرائيليون عندما انطلقت النيران نحوهم وحرصوا فقط على تحديد مكان المقاتلين، ثم منعهم من الوصول إلى مياه القناة.

ما زال الظلام مسيطرا، والنجوم لامعة فى السماء، وضوء القمر يحاول جاهداً أن يطل من ثقب الظلام.

رأى إبراهيم الرفاعى أن يلجأ إلى وسيلة القنص التى يجيدها.

فاختار قائد المجموعة، وصوب إلى رأسه وجندله.

جُن الإسرائيليون، وفتحوا نيرانهم، وطالبوا بتقدم الدبابات وتحليق الطائرات لإنهاء هذا الموقف الجسور.

اتفق أسامة مع القائد أن يتقدم، ويهاجم العدو من قرب حتى يترك

الفرصة للمقاتلين ليهربوا بالصاروخين.

وجاءت كلاب الحرب، وأطلقها العدو لتمزق المقاتلين.

لكن إبراهيم جندل أحدهم، فتراجعت الكلاب وهى تئن.

قفز إبراهيم بين الصخور، ثم فاجأ أحدهم، ووضع السكين على عنقه، قال الرجل بصوت مرتعش: أرجوك اقتلنى بالرصاص.

- لن أقتلك لو سرت معى.

كان هذا الأسير ضمانا لهم للعودة.

قال إبراهيم: فليذهب الجميع مع الأسير، وسأغطى أنا وأسامة انسحابكم، ثم أرسلوا طائرة لأخذنا.

وأمطر إبراهيم الأعداء بالرصاص والقنابل اليدوية.

وجاءت الطائرات الهليكوبتر، ولم تهاجم القاربين اللذين عادا للشاطئ الغربى مع الأسير والصاروخين.

وتدخلت المدفعية المصرية المضادة للطيران، فهربت الطائرات الإسرائيلية واندفعت الدبابات تطلق حممها على إبراهيم وأسامة.

التفت أسامة إلى إبراهيم وقال له: هيا نهرب للقناة.

جرى الاثنان بين الصخور، وقذفا بنفسيهما إلى الماء والنيران تلاحقهما، وعام إبراهيم.

ووصل إلى الشاطئ، وجد رجاله ينتظرونه التفت نحو الماء، وقال: أسامة... كان معى، ابحثوا عنه انطلقت القوارب تبحث عنه.

لم ينم إبراهيم الرفاعى. على شط القناة... حدث نوع من

الاتصال الوجدانى بين الرفاعى، وبين الوجود.

شعر بذوبان وجدانه... فى الكون وعيناه متعلقتان بالنجوم، فضياؤها يشده لأعلى.

لكن.. سحابة من الحزن الرقيق تملأ قلبه.

هذا الجمال وهذا الجلال... لماذا لا يتمتع به الإنسان؟

ولماذا يمتلئ القلب بالأحزان؟!

تعال يا أسامة لتمسح الغمام من آفاق قلبى.

فى الصباح هناك من أيقظه حسب رغبته.

خرج، ووصل إلى شط القناة.

عم بيومى... يضحك وهو يراه.

- صباح الخير يا حضرة الضابط.

كلب (عم بيومى)... يتمسح بالضابط الرفاعى، ويموء... كأنه يسأل عن صديقه الغائب (الضابط أسامة) فهو الضابط المحب للكلاب، ويقدم لهم الطعام ويهش لهم، حتى أنه عندما يسير فى الطريق... يتجمعون حوله وأمامه وخلفه.

فسأل الرجل: أين الضابط أسامة؟

- موجود

..... لكن الكلب ترك الجميع وجرى نحو شاطئ القناة، ولاحظ الضابط والجنود أن الكلاب كلها تجرى نحوى الشاطئ.

ثم أخذت تموء، وتطلق أصواتا... محشرجة... كأنها صرخات

ألم، أو أنين قلب ممزق.

..... ذهب إبراهيم إلى الشاطئ، فكاد قلبه أن ينفجر، عندما رأى، جثة تلميذه الأثير حملتها المياه...، وجاء أحبابه (الحيوانات التى رعاها) لتوديعه.

احتضن أحزانه فى وجوم، وهو يكاد يشعر بعبثية كل شيء...، لولا أن جاء الفريق عبدالمنعم رياض لتهنئته بالنجاح فى المهمة، وواساه فى الشهيد أسامة، وقال كلمة واحدة هم السابقون ونحن اللاحقون.

١٣ - كلام الأسير

حضر إبراهيم الرفاعى استجواب الأسير الإسرائيلى لاتقانه اللغة العبرية.

الأسير طلب تدخين سيجارة

همّ الضابط المستجوب أن يقدم سيجارة له، لكن إبراهيم الرفاعى قال له، فليدخن بعد انتهاء التحقيق.

كان كلامه واضحا وحاسما.

الأسير نظر إلى إبراهيم، وشعر برهبة منه، لأنه يمتلك نظرات كاشفة.

قال الأسير: لن أتكلم.

قال إبراهيم: ستتكلم

- ليس بالأمر

- سيكون كلامنا حواراً.

- أى حوار؟!

- ما هى خططكم للمستقبل؟

ابتسم الأسير ساخراً، وسأل هازئا عن أى مستقبل تسأل؟

- مستقبلكم؟

- نحن، مستقبلنا زاهر، ينمو مع كل حرب، ونحن فى طريقنا لتكوين إسرائيل الكبرى.

– اسمع أيها الضابط، أنا لا أعرف إن كنت تعرف فى الاستراتيجية أم لا، لكنك بالضرورة تعرف أن حدودنا الآن آمنة كثيراً.

– لا توجد حدود آمنة.

– نحن لدينا قائد عظيم، وهو الجنرال موشى دايان، ونظريته فى تأمين إسرائيل هى أن تكون حدودنا قناة السويس ونهر الأردن، وجنوب لبنان، ومرتفعات الجولان.

– هذه الحدود الطبيعية، لن تجعلكم تفكرون فى مهاجمة إسرائيل بل هى تسمح لنا بتأديبكم فى الوقت الذى نختاره.

شعر إبراهيم الرفاعى برغبة قوية فى صفع الأسير الصفيق لكنه كظم غيظه، كما أنه شعر ببعض الإعجاب الداخلى للأسير لأنه يحاول الحفاظ على كرامته، بالرغم من أنه لم يتعرض للإهانة.

أبدى الفريق عبدالمنعم رياض رغبته فى أن يرى الأسير هجوم المدفعية الذى سيبدأ فوراً.

فقد إطمأن الفريق إلى مستوى جيشه نوعاً ما، وأصبحت الجبهة، ومسرح العمليات معدين تماما، وكل آله حربية ومدفع ودبابة موجودة فى موقع محصن يسمح لها بالمناورة.

وأصبح الجيش كله متصل ببعضه... ويعمل تحت قيادة واحدة لكل الأسلحة ومن المهم تطعيم الجيش، والاشتباك مع العدو، لمعرفة مدى قوته، ووأد كل أسطورة عن تفوقه.

وبعد أن عرف الفريق عبدالمنعم رياض «رئيس الأركان» نوعية

الصواريخ المنتشرة على الضفة الشرقية، وعرف أماكن تواجدها وكل ذلك بفضل المجموعة (٣٩) قرر أن يعطى الإشارة ببدأ مرحلة الدفاع النشط.

فانطلقت المدافع بتصويب محكم تصب حممها على كل مواقع الصواريخ المنتشرة على الضعفة الشرقية.

وصرخ الجنود الإسرائيليون، وطلب القادة الإسرائيليون من المنظمات الدولية إيقاف القتال، ولو مؤقتا لدفن موتاهم.

وشهد الأسير الإسرائيلي... ما حدث من الجيش المصرى فوقف مذهولا.

وعندما أعادوه مرة أخرى للاستجواب، وحضر إبراهيم الرفاعى الاستجواب، كان الأسير صوته منكسرا، وقال إنه مدرس تاريخ، وكم يود لو ينتشر السلام فى المنطقة.

سأله الضابط المحقق: أى سلام؟! وأنتم مغتصبون لأراضى الغير بالقوة.

- أنا جندى، وليس سياسيا، وأتمنى السلام العادل للجميع.

ورأى رئيس الأركان عبدالمنعم رياض، وقائد الجبهة أحمد إسماعيل أن يبدأوا فى اقتحام الضفة الشرقية بأعداد كبيرة وأوقات مختلفة وأيضا وسائل متعددة، وأن تشترك جميع الوحدات فى هذا الاقتحام لكى يتعرف الجميع على حقيقة العدو الذى يحاربونه، ويتعرفون أيضا على أرض العمليات، ولكى يصوبوا من خططهم نتيجة الممارسة الواقعية.

١٤ - شرائط الرعب

أصبح تقليدا لضابط الإشارة فى المجموعة (٣٩) أن يسجل شرائط لعمليات الاقتحام التى يقوم به إبراهيم الرفاعى ومجموعته الخارقة.

أحضر الضابط شريطا لإبراهيم، وهو يقتحم أحد المواقع وجلس الجميع يستمعون إليه.

- النمر... ومجموعته يقتحمون الدشمة علينا، لا شىء يعوقهم...

أنتم لا تعرفون النمر؟!... إنه كائن نارى... مجيئه معناه الموت.

لا نستطيع المقاومة... الحقونا... إنه ظهر آ... آ...ه ... أتركنى... يا مصرى.

وقد بلغ عدد الشرائط... حتى الآن أكثر من خمسين شريطا.

١٥ - مرحلة الاستنزاف

قررت القيادة العامة إرهاق العدو، وإنهاك قواه، ونزف دمائه حتى يغير قادتهم تفكيرهم، ويرضخون للإجماع الدولى بتنفيذ القرار ٢٤٢.

ولذلك أصدر الفريق عبدالمنعم رياض أوامره بأن تدك المدفعية حصون الأعداء التى شيدوها بعد تكرار الهجوم عليهم.

استمر جحيم النيران لمدة خمس ساعات متصلة....

وحطمت دانات المدافع غالبية الحصون التى شيدها العدو.

قرر رئيس الأركان الفريق عبدالمنعم رياض المرور على الجبهة ومعاينة ما حدث لتقيمه، وتصويب الأخطاء إن وجدت.

كان الرجل يصر على أن يسير فى محاذاة القناة ليرى عبر المنظار حقيقة ما حدث.

رآه أحد القناصة، فصوب نحوه.

لجأ الفريق عبدالمنعم رياض إلى أحد الحفر القريبة، وكذلك كل من كان معه.

انتظر الجميع حتى انتهى القصف.

واستعدوا لاستكمال جولتهم.

ولم يخرج الفريق عبدالمنعم رياض... نادوه... لم يرد.

وجهه مبتسم، لكنه خال من أى تعبير، لقد أصبح جسدا بدون

روح، حدث انفجار فى أوعيته الدموية.

فى يوم (٩ مارس ١٩٦٩) خرجت مصر كلها... وعلى رأسها جمال عبدالناصر لتوديع شهيد مصر الكبير...، الفريق أول عبدالمنعم رياض.

١٦ - إنتقام الرفاعى

أصبح قلبه مثقلا بالآسى، وتغلغل الألم حتى جذور قلبه. لكنه قرر أن يحضن أحزانه، ويطفئها بفعل هائل.

لا شىء يطفئ النيران قليلا إلا قَتْل كل رجال الموقع الذين أطلقوا الصواريخ على البطل.

أسر بفكرته إلى أفراد المجموعة (٣٩) فرحبوا بها.، وأخذ تصريحا من رئيسه قال لرجاله: أريد استطلاعا لهذا الموقع أولا.

تم استطلاع الموقع أكثر من مرة، وفى كل مرة يذهب عد مختلف من المجموعة.

ثم حدث التدريب على موقع مشابه.

التدريب يحدث من الجميع.

حتى المراسل العسكرى (عبده مباشر) اشترك معهم فى التدريب.

رضى إبراهيم عن أداء المجموعة.

وقرر اقتحام الموقع الساعة الرابعة فجراً.

طائرتان هليكوبتر... حملتا ثلاثين مقاتلا بالأسلحة والصواريخ والقنابل.

قسم الرفاعى المجموعة ليكون الهجوم من جميع الاتجاهات، وكانت الأوامر لهم... تحطيم الموقع تماما، وقتل كل الموجودين فيه.

شهق جندى مراقبة إسرائيلى وهو يرى عددا من المقاتلين أمامه

وقبل أن يهمس انطلقت رصاصة حصدت روحه.

كان الموقع حصنا تحت الأرض، مقوى بالحديد، اقتحم إبراهيم الحصن، وقتلوا اثنين حاولا المقاومة.

ثم ساد الهرج والصياح، وجرى ثلاثون مقاتلا يبحثون ويقتلون وينيرون الرعب، وحدث الالتحام بالسلاح الأبيض.

وبعد قليل بحث إبراهيم عن أى جنود آخرين، فلم يجد أحدا أمر بتفجير كل المنشآت، وحرق الموقع وتفجيره.

ثم غرسوا راية رأس النمر.

وعاد المقاتلون... بعد أن قتلوا كل من فى الموقع أما الفرقة (٣٩). فقد عاد بعضهم بآثار من الجروح.

تحدثت جولدا مائير لرجال الصليب الأحمر بلهجة تقطر أسى، وهى تقول: لقد ذبحهم المصريون بدون رحمة، إن الضابط الرفاعى يجب أن يقتل.

نقلت جولدا مائير رغبتها الحارقة إلى وزير الدفاع موشى دايان.

وزير الدفاع قرر إرسال فرقة كوماندوز من مائة مقاتل إسرائيلى معهم أحدث الأسلحة والدبابات البرمائية.

ومعهم أجهزة رؤية ليلية.

ولديهم أمر - واحد حتمى، ووعود هائلة بتحقيق أمنياتهم إذا قتلوا إبراهيم الرفاعى، قال موشى دايان لهم: يجب أن تصطادوا هذا المجرم.

١٧ - عملية كوماندوز إسرائيلية

أمواج الليل تسوق برودة تفتت العظام.

هناك صوت خطوات حذرة

- مَن هناك؟

قالها جندى الحراسة بقوة.

- أنا الضابط شوقى جمعة... كله تمام يا بنى.

تنبهت كل خلايا الجندى وردد بشكل آلى: كله تمام يا أفندم.

جاء الضابط، وقال له: سر أمامى أريد أن أفتش الموقع.

سار الجندى ممتثلا ومرتبكا، وعند المدخل عاجله الضابط الإسرائيلى بطعنه قاتلة.، ثم أطلق رشاشه على الداخل. فقتل ثلاثة جنود.

وهمس لنفسه: يا لغفلة المصريين.

فلنتحرك للموقع التالى.

- مَن هناك؟

- أنا الضابط شوقى جمعة... (وهو الضابط المسئول عن المنطقة)

- ما هى كلمة سر الليل؟

- قلت لك أنا الضابط شوقى جمعة... كله تمام يا بنى

- قل كلمة السر، وإلا...

انطلقت رصاصات نحو الجندى.

لكن الجندى كان حذرا، ويقظا، فقد أخذ ساترا، وأطلق الرشاش. وسرعان ما اشتعلت جميع المواقع بالنيران.

وامتلأ الأفق بعاصفة من نباح الكلاب مختلطة بعاصفة النيران. واكتشف المصريون وجود عدد من الدبابات البرمائية على سطح المياه.

وحدث الاشتباك بالسلاح الأبيض، فقد تدفق الإسرائيليون فى المنطقة التى خلت، وكانوا يريدون أسيراً يقودهم إلى إبراهيم الرفاعى.

الذى يحتفظ «دائما» بمكان وجوده سراً.

ضابط المدفعية... يطلق داناته... لكنها دانات طائشة.

قال الضابط: نحتاج لجندى إشار يصوب لنا زاوية الإطلاق.

ظهرت مجموعة إبراهيم الرفاعى.

قال أحد الضابط المهندسين، سأذهب أنا إلى هناك، وأعطيكم الإشارات اللازمة.

وجرى الضباط حتى وصل إلى حفره قريبة من الشاطئ. وأعطى الإشارات اللازمة للمدفعية.

فأطلقت نحو الدبابات...، وسرعان ما تصاعد اللهب والدخان إلى السماء.

المدافع... حولت الليل الساكن إلى ليل مشحون بالمتفجرات

ومضاء بالنيران، وملوث بالدخان.

وضابط الإشارة يصوب، ويراقب.

فشاهد الإسرائيليين يقذفون بأنفسهم فى المياه، وسمع صراخ متوجع بالألم، ورأى ساقا متطايرة فى الهواء وشاهد رجالا يجرون ويصرخون، ويقفزون إلى المياه.

ثم سكن المنظر.

وسكنت الأصوات

وعاصفة نباح الكلاب مستمرة.

..... واصطبغ لون القناة باللون الأحمر.

فى الصباح....

اكتشف الجنود استشهاد ستة من شباب مصر كان أحدهم مطبقا بيديه على رقبة جندى إسرائيلى حتى الموت: خلصوا الإسرائيلى من بين يديه جثة هامدة.

١٨ - صمت المدافع موقتاً

كتب المراسل العسكري في مفكرته.

إن حرب الاستنزاف أرهقت العدو، وأرهقتنا وكانت ضرورية لرفع الروح المعنوية لجنودنا، وللتعرف على قدرات العدو الحقيقية بعيداً عن المبالغة والأساطير، وأيضا ضرورية لاكتشاف ما ينقصنا من السلاح، واكتشاف أنفسنا.

وهي تدريب عملي حي... على المعركة الكبرى.

لكن العدو لم يتحمل خسارته اليومية في الأفراد والمعدات فلجأ إلى طيرانه... ليضرب أهدافا مدنية في العمق.

فضرب مدرسة بحر البقر، ومصنع أبو زعبل، وأهدافا بعيدة في المنصورة وفي سوهاج.

كان يريد تصدير الخوف إلينا، وتعميق الشعور بالعجز والضعف. وجاءت مبادرة روجرز

قبلها الإسرائيليون... ليشيدوا مزيدا من التحصينات على جبهة القناة، والطرق والمطارات في سيناء.

أما مصر فقد قبلتها لاستكمال شبكة الدفاع الجوي، وبناء قواعد الصواريخ، وجُندت شركات المقاولات، والمهندسين بكل تخصصاتهم والعمال الفنيون للإسراع في بناء هذه الشبكة.

وتمت فعلا الشبكة بمجهود متواصل بالرغم من تدخل الطيران

الإسرائيلى، وقصف المواقع قبل اكتمالها، لكن إصرار المصريين صنع المعجزة.

١٩ -رحيل الأسد الجريح

نذر القائد نفسه لتصحيح المسار، وبناء جيش قوى على أساس علمى، وحضر تدريباته، وناقش القادة، وذهب إلى الاتحاد السوفيتى لاستكمال المعدات المطلوبة.

واجتمع مع العرب... لخلق ثلاث جبهات... جبهة فى مصر وجبهة فى الأردن، وجبهة فى سوريا.

.... لكن خبرات الماضى... أفادت باستحالة ما يفكر فيه، فالكلام طيب، والوعود مبذولة، أما التنفيذ... فرهن بالرياح... وفاضت روحه قبل أن يحرر الأرض.

وخرجت مصر كلها تودعه.

فهو إبنها الذى حاول أن يرفع رأسه، وكان ممتلئا بالنيات الطيبة، التى تطايرت هباء على أرض الواقع لعدم وجود مؤسسات علمية منظمة، وسيادة روح الحماس الأجوف.

وحاول جاهداً أن يصحح أخطاءه، لكن الأمراض هاجمته.

وأراد الله... شيئا آخر.

ففاضت روحه، ونسى الشعب كل آلامه وانكساراته وودعه وهو يغنى له أغنية حزينة تقطر حباً مهزوما.

«الوداع يا جمال يا حبيب الملايين»

٢٠ - مرحلة جديدة

الهدوء ساد الجبهة، وتوقفت كل عمليات العبور للشرق وفقدت الأيام لونها وطعمها والإحساس بها.

قال نيتشه «عش فى خطر».

فالحياة فى خطر توقظ كل مشاعر القوة فى الداخل، وتتوهج خلايا المخ فتشعر بقيمة كل لحظة.

إبراهيم الرفاعى كان يخاطر بحياته... ولكنه كان يقظا ومتنبها لمصادر الخطر فيسهل عليه تجنبها، ولذلك فإنه كان يحتفظ بأعصابه هادئة، وبعقله نشطا، بل كانت كل ذرات عقله مشتعلة.. تحلل وتنبه وتقرر.

لذلك فإن حرمانه من خوض العمليات الحربية ضد العدو لم ينل رضاءه.

وأسر لصديقه المراسل الحربى بأنه يريد مقابله الكاتب الكبير عماد الدين، ليطرح عليه كثيرا من الأسئلة.

قال صديقه: قل لى ما تريد، فقد أجيبك.

– أنا أحب هذا الكاتب، فهو منطقى التفكير، هادئ، لا يتحدث بدون أدلة، وهو قارئ جيد للتاريخ يلجأ إليه للمقارنة كما أنه خبير بالأوضاع السياسية العالمية، والأهم أنه لا يسعى إلى أى منصب.

– سأدبر لك اللقاء.

K

فى حجرة استقبال بسيطة، خالية من أى زخرف، مليئة بالفراغات جلس الاثنان إبراهيم الرفاعى، والكاتب الكبير...

طلب إبراهيم شراب السحلب، وطلب الكاتب شراب الينسون بالنعناع.

قال إبراهيم: أشرب السحلب من أجل آلام القرحة.

- قرحة؟

- نعم قرحة معدية... لقد أجريت عملية فى لندن وكان يجب أن أعاودهم هذه الأيام، ولكنى رفضت

- لماذا؟

- وماذا يكون جُرحى أنا بالمقارنة بجرح مصر؟!

اهتزت يد الكاتب ولمعت نظراته من خلال نظاراته الطبية السميكة.

ساد الصمت قليلا

وسأل إبراهيم: ثم بعد يا أستاذنا؟

- ماذا تريد يا سيادة العقيد؟

- أنا مصرى عادى، وأريد تقييمك للوضع الحالى.

- ماذا تقصد؟

- تحركات الرئيس السادات.

- اسمع يا إبراهيم، السادات شخصية مختلفة جذريا عن عبدالناصر.

وقد ورث الحكم... وسط مشاكل وزوابع وأرض غير ممهدة والرجل لم تكن له صداقات قوية... أو تكتلات وهو ليس شخصية قافزة... قاهرة... لها وجود كثيف مثل شخصية عبدالناصر.

ولذلك فالموضوع أكبرمن قدراته

- أى موضوع يا أستاذنا؟

- موضوع الحرب

- لكن الحرب تخص القوات المسلحة، وهى مُعدة جيداً، وجاهزة وقامت بالتدريبات اللازمة، وعبدالناصر ومحمد فوزى وعبدالمنعم رياض قاموا بأكثر من واجبهم فى تكوين الجيش مرة أخرى.

- سأل الكاتب بابتسامة تقطر مرارة.

- وأين هم؟

- عملهم باقى يا أستاذ.

- السادات كان بعيداً عن المسرح، وعن الجيش، ولم يحدث امتزاج بينه وبين القادة، كما أن هناك فكرة مسيطرة عليه.

- أى فكرة؟

- هزيمتنا فى ١٩٦٧م... تدفعه إلى أن يفكر فى طريقة واحدة فقط، وهى أن يبتعد عن الحرب.

- لكن ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة.

- السياسة ليست شعارات، بل هى مصالح وتوازنات عالمية وأذكرك بمحمد على عندما بنى جيشا قويا ماذا حدث؟ تألبت أوروبا

كلها عليه، لأن طموحه أصبح يهدد مصالحها.

– ماذا تقصد يا أستاذ؟

– هذا يفكرنا بما حدث لعبدالناصر فطموحه أصبح يهدد التوازنات العالمية، بل والذى يدعو للسخرية أن طموحه لم يكن يستند إلى جيش قوى، فقيادة الجيش ووزير الحربية، كانوا غير مؤهلين عسكريا.، أننا بلد غير منتج للسلاح.

– أنت تطرح بى إلى هوة اليأس.

– لا، أنما أعيدك إلى أرض الواقع.

– دعنى أسالك بوضوح، هل السادات سيحارب؟

– نعم

– كيف جاءك هذا اليقين؟

– الرجل تحرك أولا... وهو ممسك بغصن الزيتون، وتكلم بمصطلحات السلام، وأعاد الثقة بينه وبين الرؤساء العرب وفتح قنوات بينه، وبين أمريكا، بل وربط أسبابه بوزير الخارجية هنرى كيسنجر، ووصل الأمر به إلى طرد الخبراء الروس.

– هذا شيء ضده، فهذا القرار سيضعف الدفاع الجوى، كما أنى عرفت أنه أخذ هذا القرار بدون الرجوع إلى قواد الجيش.

– أنا أعرف السادات جيداً، وتابعته فى قضية أمين عثمان، وأيضا فى سلوكه ليلة قيام حركة الجيش فى ٢٣ يوليو ١٩٥٢م وخلصت إلى أنه رجل مناور يحتفظ بالقرارات الهامة لنفسه، ويأخذ القرارات

الصادمة للغير... ليغير بها وضعا متكلسا.

- وضع متكلس؟!

- نعم... فالروس يماطلونه فى السلاح، والأمريكان يلوحون له بالحل السلمى بشرط الابتعاد عن المعسكر الشرقى، وإسرائيل تزيد فى تدعيم وضعها فى الأراضى المحتلة.

- لكن هذا القرار مضر لنا وكأنه يهد المعبد فوق رؤوسنا.

- لا، إنه يهدد الروس بطردهم من الشرق الأوسط كله

- أنا غير مقتنع.

- أما أنا فيراودنى خاطر أن قرار الحرب قد اتخذه السادات ولذلك طرد الروس... لكى يكون حر الحركة.

- كيف؟

- ألم تقل أن الجيش أصبح جاهزا؟

- هو فى خير حالاته... بالرغم من أن إسرائيل متفوقه علينا فى السلاح.

- روسيا... تماطل فى إعطائنا السلاح المناسب، ونحن لا نملك وسائل ضغط، والعرب يتكلمون ولا يدفعون، وإسرائيل سعيدة بسلام غير رسمى... ولكنه سلام واقعى... فماذا يفعل السادات؟ ليس أمامه سوى أن يحارب أو يعتزل.

- نحن فى نهاية عام ١٩٧٢م، وقد قام بتغيير القيادة... فمتى يحارب؟

- دعنى أسألك سؤالا واضحا؟
- اسأل يا أستاذ
- ما رأيك فى أحمد إسماعيل والشاذلى وعبدالغنى الجمسى؟
- إنهم رجال حرب
إن أحمد إسماعيل لا يشغله سوى سؤال واحد وهو متى نحارب
- متى كان يشغله هذا السؤال؟
- وهو قائد جبهة... أيام عبدالناصر
- على حد علمى... أنه هو الذى كون المجموعة (٣٩) برئاستك
- نعم
- وكان رئيسا للمخابرات الحربية
- نعم
- من فى رأيك... رجل حرب أكثر أحمد إسماعيل أم محمد صادق؟
- أحمد إسماعيل بكل تأكيد
- لماذا عينه السادات وزيراً للحربية؟ ولماذا عين الرجل الرهيب عبدالغنى الجمسى مديرا للعمليات؟
- صاح إبراهيم: إن الحرب قادمة... شكراً... يا استاذ عماد شكراً فقد أثلجت صدرى.

٢١ - خطة الخداع

زائيرا رئيس الموساد فى اجتماع عاجل مع معاونيه لدراسة الموقف قال ضابط متشكك: إنها الحرب أيها الرئيس.

- عن أى حرب تتكلم يا رافى؟
- لا معنى لترحيل عائلات الروس إلا لقرب قيام الحرب.
- ولماذا لا تقول إن الإقامة أصبحت غير طيبة للروس؟
- فى سوريا وفى مصر؟!... الأمر يحتاج إلى تفكير يا ريس.

تدخل ضابط آخر، وقال وهناك ما يؤكد كلام رافى. - ماذا عندك يا صافورا؟

- توقف رحلات مصر للطيران
- ضحك زائيرا... شاعراً بالتفوق، وقال له. - معلوماتك قديمة، فقد استأنفت الشركة رحلاتها بعد ساعتين من التوقف.
- لماذا؟!
- أعطال فنية، أو أعطال من أى نوع... فأنت تعرف أن أعذارهم كثيرة.
- عاد رافى للتشكك، وقال لزائيرا.
- والمناورات على خط القناة؟
- ضحك زائيراً ساخراً
- وما أكثرها... هذا شىء للاستهلاك المحلى، إن الرئيس

السادات يعمد إلى ذلك لإرهاق الجنود حتى لا يثوروا عليه، فمعلوماتنا تؤكد أنه لا يحظى بشعبية... مثل ناصر.

– لا تذكرنا به... فقد أراحنا الرب منه، وأراح جولدا مائير التى لا تكره أحدا مثله.

– لماذا هل أهان أنوثتها؟

– ضحك زائيرا... وقال: ماذا بكم اليوم؟

– قال رافى: الحقيقة... أود أن تطلع الوزير على شكوكنا.

– موشى دايان؟

– نعم، وهل لنا وزير غيره؟!

سأل موشى دايان: وما رأيك أنت يا زائيرا؟

رأى رئيس المخابرات أن يلزم الحذر، فقال.

– الأمر خطير، ويتطلب منا التحقق.

– وما دورك يا زئيرا؟!

– الأدلة المتجمعة لدى تقول إن المصريين سيشنون الحرب.

التفت موشى دايان إلى زائيرا، وقال متهكما:

هل تعرف كم يكلفنا استدعاء الاحتياطى فى كل مرة؟

إننا استدعينا الاحتياطى مرتين من قبل إن المصرين يلعبون ثم إن السادات ليس برجل حرب.

هذا رئيس بالصدفة، كان بعيدا عن كل المراكز القيادية وعن الجيش، وظهر... عندما انتهى أمر الضباط المحيطين

بعبدالناصر، وهو يعرف تماما... ماذا يريد؟

- ماذا يريد؟

- كرسى الحكم

- وماذا يعنى هذا؟

- يعنى الابتعاد عن إسرائيل، والابتعاد عن الحرب، سؤال إذا كان يريد أن يحارب فكيف يطرد المستشارين الروس؟

- فعلاً.

صمت موشى دايان قليلا، وأعطى منشوراً لزائيرا، وقال له: أنت مقصر فى عملك يا زائيرا، وإلا كنت رأيت هذا.

قرأ زائيرا المنشور، وقال: إننا نحن من أعددنا هذا المنشور.

- وهل فهمت ما فيه؟

- وماذا فيه؟

- الإعلان عن التقديم للحج لرجال الجيش المصرى.

- نعم

- ما رأيك فى جيش يريد أن يحارب، ويذهب ضباطه للحج؟! هل هذا منطقى؟

- لا... غير منطقى... أنت على حق يا سيدى

هذا الأمر بالضبط هو ما آثار إبراهيم الرفاعى، فهو قد اقتنع باقتراب قرار الحرب، وكثرة المناورات والتدريبات الشاقة واستدعاء الاحتياطى، ثم تسريحه أيضاً آثار البلبلة فى تفكيره لكن

ما يراه من تحركات الفريق سعد الشاذلى فى مروره المستمر على كل الفرق، وما يراه من تجانس بين الفريق أول أحمد إسماعيل واللواء عبدالغنى الجمسى مدير العمليات كلها مؤشرات قوية على قرب القرار، وشعر إبراهيم الرفاعى أن رأسه تكاد تنفجر إلى أن جاءه تليفون من البيت التليفون من ابنته الصغيرة... تدعوه ألا ينسى عيد ميلادها وهديتها وخاصة نحن فى اليوم الثالث من رمضان.

٢٢ - عيد ميلاد جهاد

فى أيام رمضان تجتمع الأسرة الكبيرة فى منزل الوالد فى بلقاس.

الأب ظهرت عليه علامات الشيخوخة بالرغم من جسده الممشوق، لكن عينيه... تنظران للداخل أكثر.

ولجأ الرجل للتصوف... إلى سحابة بيضاء أخذته إلى عالم لا هموم فيه. أما الأم فهى تتابع شئون أولادها الثلاثة وشئون زوجاتهم. وإبراهيم ينظر إلى الجميع بحب، نظراته تسيل حبا وهو يتحدث مع أخوته.

بعد تناول الفطور... رأت الجدة أن تحتفل بعيد ميلاد جهاد حفيدتها الأثيرة.

لبست جهاد فستانا جديداً أحضره الأب معه، وأمسكت فانوس رمضان، وأخذت تغنى مع أطفال العائلة، وإبراهيم يعزف على الكمنجة، وأخوه يصفر، والأخ الثالث يقسم على الرق وانطلقت جهاد تغنى

هات الكيس وادينا بقشيش

لا نروح ما نجيش يا حلو

رمضان كريم يا حلو

.... أفاق الجد من إحدى غفواته الغيبية، ونظر إلى ابنه إبراهيم نظرات غريبة، وتمتم الحمد لله... ولاحول ولا قوة إلا بالله.

سأل أحد أبنائه: ماذا هناك يا أبى؟

- متى سنحارب يا إبراهيم؟

- قريبا يا أبى... قد يكون خلال هذا الشهر.

- وهل يحارب أحد فى رمضان؟

صوت جرس الباب يرن.

فتح أخو إبراهيم

وجد عسكرى جيش... يقف على الباب ويؤدى التحية العسكرية.

ويقول: العميد أركان حرب إبراهيم الرفاعى مطلوب، (أخذ رتبة عميد منذ أيام).

يتوقف إبراهيم، ويذهب للباب، ويتبادل كلاما مع العسكرى ثم يعود.

يدخل حجرة، ويلبس ملابسه العسكرية، ويقبل زوجته دموع زوجته تسيل بغزارة وصمت.

- ماذا هناك يا نادية؟

- لا أدرى.

- كونى قوية يا حبيبتى.

- إبراهيم... قلبى منقبض.

- لا أحب أن أسمعك تقولين هذا. - وكان قلبه هو يكاد ينفجر، ولا يعرف لماذا.

- حضن الجميع... أما ابنته الصغيرة فقد أمطرها بالقبلات.

- وقال لابنه سامح: أنت رجل البيت، ومسئوليتك جهاد يا بطل.
وانصرف.
- كان قلبه يشعر أن هذه المرة مختلفة وأن الاستدعاء يكاد...
يكون استدعاء حرب.

٢٣ - سباق مع الزمن فى إسرائيل

مجلس الوزراء فى إسرائيل مجتمع فى يوم ٥ أكتوبر ١٩٧٣م

رئيسة الوزراء جولدا مائير يظهر على وجهها القلق وهى تشعر أن الهدوء ثقيل.

أما وزير الدفاع موشى دايان فهو يتحرك ويتكلم بغرور شديد

قالت جولدا مائير: إن المعلومات التى وصلتنا تؤكد قيام مصر وسوريا بهجوم علينا غدا... فماذا نفعل ونحن فى عيد الغفران؟

- موشى دايان: فلنسبق نحن بالهجوم.

- كيف، ونحن فى عيد، ونحتاج لوقت لاستدعاء الاحتياط. قال وزير آخر:

- نحتاج يومين لاستدعاء الاحتياط.

- فلنلجأ للخداع.

- كيف؟

موشى دايان: أنا متأكد أن المصريين خافوا من ضربة جوية فقرروا أن يسبقونا؛ ولذلك اقترح بأن أبا إيبان يتصل بوزير خارجية أمريكا (هنرى كيسنجر) ليخبر الروس بأننا لا ننوى الهجوم على مصر أو سوريا... فيحدث الاطمئنان وتنتهى الأزمة.

أبا إيبان: هل ستنتهى الأزمة فعلاً؟

موشى دايان: فقط ينتظرون يومين، وسأفعل فيهم ما فعلته فى

١٩٦٧م، فيجب أن يشعروا بالعجز واستحالة محاربتنا.

نظرت جولدا مائير بغيظ وحقد له، لأنه يتكلم ويقرر كل شىء متجاهلا وجودها كرئيسة وزراء.

وسألته مستوضحة: ماذا ستفعل بعد يومين؟

– ضربة طيران موجعة، واكتساب أراضى جديدة وإحاطة الدول العربية المواجهة بالحزام الأسود...

وهمس سراً... حزام موشى دايان... الذى سيخلده التاريخ.

قالت جولدا مائير: اذهب... واعقد مجلس الحرب وبدد... المصريين والسوريين.

ثم نظرت إلى أبا إيبان وقالت له: أما أنت... فلا تترك كيسنجر حتى تتأكد أنه أبلغ المصريين والسوريين بألا يتهوروا.

وأننا لن نحارب حاليا، خاصة ونحن فى عيد الغفران.

وانصرف كل الوزراء بما فيهم رئيس الأركان... لمسابقة الزمن.

٢٤ - الرفاعى فى مقابلة شديدة الأهمية

هذا الرجل وجهه يذكرنى بوجه أبى الهول.

فهو وجه حاد الملامح... عميق... كأنه يبتلع كل الأسرار فى داخله هل عمله فى المخابرات... هو الذى حفر فى داخله كهوف الصمت؟

أم مسئوليته عن الجبهة بعد ١٩٦٧م، أم مسئوليته كوزير حربية من نهاية عام ١٩٧٢م.

خواطر مرت كالبرق فى ذهن إبراهيم الرفاعى، وهو يواجه الرجل الصخرى أحمد إسماعيل وزير الحربية، فاضت عينا الرجل بحنان، وهو يهمس «رفاعى».

أنكرت أذناه... ذبذبات الصوت الرقيقة.

لمعت نظراته متفحصة ومتسائلة، ولدهشته رأى نظرات الرجل تقطر حبا، ولولا قواعد الجيش لارتمى فى حضنه، وقبله وقال له: لبيك أبى

ابتسم الرجل وسأل: ماذا قلت يا إبراهيم؟

- ماذا قلت يا سيادة الفريق؟!

- قلت لبيك أبى.. إنها كلمة غريبة يا إبراهيم لكنى أقبلها منك ممتنا بالرغم من أن الفارق فى العمر بيننا ليس كبيراً لهذه الدرجة.

- لكنك فى منزلة أبى.

صمت الرجل، وعاد إلى تجهمه، ومد يده بمظروف، وقال لإبراهيم: الطائرات الهليكوبتر ستنقل المجموعة (٣٩) وأيضا ستنقل رجال الصاعقة بقيادة العميد نبيل شكرى إلى الضفة الشرقية، ولا تفتح المظروف إلا وأنت فى داخل الطائرة.- الله أكبر... هى الحرب

ابتسم الرجل الصخرى ابتسامة صغيرة، وفتح ذارعيه. ارتمى إبراهيم فى حضنه.

قال الرجل: مصر تعتمد على جهودك أنت ورجالك وأنا متأكد أنك ستكون فى مستوى المسئولية.- اطمئن يا أفندم.

وأقسم إبراهيم لنفسه أنه رأى غشاء رقيق من الدموع تتلألأ فى عينى الرجل.

٢٥ - اليوم (ى) الساعة السادسة صباحاً

هيا يا رجال إلى أول مهمة فى الحرب، وهى إبطال مفعول خزانات النابالم.

كان هذا نداء إبراهيم الرفاعى لرجاله فى صباح ٦ أكتوبر ١٩٧٣.

الساعة السادسة صباحا، مازالت مياه القناة تبعث برودة منعشة للروح، محببة للجسد.

بعض الضباط درسوا... طريقة لحام المواسير تحت الماء فى روسيا. غطسوا تحت الماء.

وبخلطة سريعة أغلقوا فتحات المواسير... المتصلة بخزانات النابالم.

كأن المهندس الإسرائيلى المسئول عن خزانات النابالم شعر بهاجس غريب، خاصة وأن هناك أقاويل حمقاء تتحدث عن حرب قريبة.

خرج المهندس لمعاينة تجهيزات خزانات النابالم.

سار منتشيا على شط القناة، وهو يعب الهواء، ويفرد صدره، ثم دارت الدنيا بة، وتحولت الكائنات إلى أشكال تجريدية من دوائر وخطوط سوداء... تدور فى اللاوعى، من إثر خبطة على الدماغ، جعلت خلايا المخ... تختلط ببعضها وتقور مكونة أشكالاً لم يعاينها من قبل.

.... وكان أول أسير فى يوم المعركة يوم (ى)

٢٦ - مشاهدات الجندى دادو فى اليوم - ى -

الساعة الثانية عشر - يوم ٦ أكتوبر (عيد الغفران).
جاء وقت الجندى (دادو) ليكون جندى الاستطلاع.
سار متثاقلا، وهو يشعر بالخمول من هذه المهمة الحمقاء.
صعد البرج، وأخذ ينظر فى التلسكوب بملل.
روحه خامدة، ماذا يفعل فى هذا المكان البليد؟
الجنود المصريون يلعبون الكرة.
وبعضهم يسبح فى القناة.
وآخرون يمصون القصب.
.... لماذا جاء التحذير بأن الموقف ج؟!
إنهم كسالى، لا أدرى كيف كانوا أصحاب حضارة؟!
جاءه سؤال من أحد القادة يسأل بلهفة: كيف الحال عندك يا دادو؟
- لا جديد يا سيدى.
- أسأل عن المصريين يا دادو.
- إنهم يمصون القصب
... ماذا؟!
- يلعبون تلك اللعبة السمجة التى يسمونها (صلّح)
- يا دادو... أسأل عن شىء غير عادى.
- لا أرى شيئا غير عادى.

- هل هناك أى مظاهر... تدعو للقلق؟- مثل ماذا؟

- التحركات على الجبهة.- أرى عربات، وجنودا، وضباطا، لكن هذه التحركات رأينا مثلها كثيرا.

- هل ترى كبارى؟- كبارى؟... أنا أرى عربات نقل كبيرة تحمل أشياء فى صناديق.

- هل هى كبارى؟- لا ... أنها طائرات

- ماذا؟

- طائرات مصرية... تطير نحو سيناء

- إنها الحرب يا دادو.

- وقبل أن ينطق دادو

أصيب برج المراقبة بدانة مباشرة أوقعت دادو فاقد الحياة.

٢٧ - مشاهدات جندى إسرائيلى آخر

الساعة ١٤٠٥ يوم ٦ أكتوبر ١٩٧٣ .

صوت طائرات... منطلقة نحو الضفة الشرقية.

هل يمتلك المصريون طائرات؟!

وكيف تغيرت الصورة هكذا؟! إن المكان كله يهتز، أصوات مدافع تزأر... فى كل مكان... ماذا حدث لهم، ألم يمت عبدالناصر؟ وعبدالمنعم رياض؟

رئيسهم الحالى ليس برجل حرب، وهو يخطب كثيرا، ويقول كلاما... مملا.

... يقول عام حسم، وعام ضباب، وأشياء من هذا القبيل ثم يقول سلام، وتطبيق المواثيق، حتى أن كيسينجر، قال: كيف لمهزوم يطلب طلبات المنتصر؟!

كيف تجرأ هذا الرئيس؟ وبدأ الحرب.

ماذا أرى؟! القناة مغطاه بقوارب مطاطية ممتلئة بالجنود وفى الضفة الغربية هناك جنود يعملون على كبارى.

طائرات، ومدافع، وتعدية للقناة، وكبارى.

لابد أنها الحرب

فتح الجندى الراديو على محطة تل أبيب

ماذا أسمع؟!

«حلة من اللحم المسلوق»، «ذئب البحر»، «السيدة الساحرة».
إنها نداءات للإحتياطى.
.... ياه.... إنها الحرب!!
لكن كيف يجرأون؟
بضغطة زر واحدة ستحيل مياه القناة إلى نار سائلة وجرى الجندى، وضغط على الزر فلم يحدث شيء.
اتصل بباقى المواقع، فعرف أن الجميع يعانون من نفس المشكل. وبحثوا عن المهندس المختص فلم يجدوه.
قال له أحد القادة فى التليفون:
– أى حرب تتكلم عنها يادان؟!... إن المصريين... وقعوا فى أكبر مصيدة....، لو فرض ونجوا من نيران النابالم، كيف سيعدون من الساتر الترابى؟ ولو حدثت معجزة خارقة وعدوا الساتر الترابى كيف سينجون من الدبابات والمدرعات والألغام التى تنتظرهم خلف الساتر الترابى.
ولو نجوا من كل هذا؟ فكيف ينجون منكم، وأنتم خلف الحصون توجهون أسلحتكم بشكل (أوتوماتيكى)، وبعد كل هذا الطيران... وما أدراك ما الطيران الإسرائيلى.
إطمئن يا دان، فقد جاء المصريون لحتفهم.
وشاء الرب... قيام إسرائيل الكبرى.
لكن دان لم يطمئن.

٢٨ - مشاهدات مراسل عسكرى مصرى

يوم العاشر من رمضان

هو يوم البعث.. الساعة الثانية وخمس دقائق

انطلقت مائتا طائرة مصرية على ارتفاع منخفض دكت مطارات سيناء، ومراكز القيادة، وتجمعات دبابات، ومحطات رادار، ومخازن أسلحة وذخيرة.

.... بعدها بثلث ساعة... امتلأ الأفق بالنيران، ألفا مدفع تصب حممها على خط بارليف، تدك حصونه، وألغامه، ودباباته

... إنه يوم البعث

الخلق من جديد

المصريون يخرجون من تابوت الصمت والانتظار

طائر الرخ اكتمل نموه، ورفرف بأجنحته النارية نحو الشرق صارخاً

.... صرخته لها دوى ألفى مدفع، ومائتى طائرة. أسراب من أفراخ الرخ تعبر القناة فى خطوط منتظمة، يعدون فى خطوط مرورية مرسومة بدقة، وكل قائد يتسلم معه مجموعة من الأعلام.

عشرات من طائرات الهليكوبتر تطير برجال الصاعقة إلى عمق سيناء.

المهندسون فى الموجة الأولى معهم نوع قوى من مدافع المياه من

اختراع المهندس (جلال سرى)،

هو الذى اخترع مدفع المياه لتقويض الساتر الترابى، وقد تمت تجربته، واعتماده.

الجنود يعدون، ومع كل منهم عربة محملة بالأسلحة الضرورية وأهمها الصواريخ المضادة للدبابات وصناديق الأسلحة والذخيرة.

.... مدافع المياه تقوض الساتر.

الجنود ينفذون، وكثير منهم يتسلقون الساتر بسلم من الجبال: والقوارب المطاطية تصل فى أفواج للضفة الشرقية والمهندسون يثبتون الكبارى فى الضفة الغربية.

إن الصورة منضبطة ودقيقة

السيناريو... منطقى وحركى... ويسيطر عليه عقل ذكى لامع خلّاق.

لن يتدخل المونتاج لقطع اللقطات الزائدة أو لضبط الإيقاع لأن الإيقاع سريع... أسرع من أخذ النفس.

يا لها من لحظة نادرة

لحظة خارقة ولدت من رحم الزمان

لحظة مقدسة أشعلت الروح....

روح كل مصرى.

٢٩ - مجلس الحرب الإسرائيلى

مجلس الحرب الإسرائيلى

موشى ديان وزير الخارجية، ودافيد ألعازر رئيس الأركان وجولدا مائير رئيسة الوزراء، وعدد من جنرالات الحرب. قال دافيد ألعازر: أنا لا أصدق ما يحدث... طائراتهم ضربت أهدافها وعادت بدون خسارة تذكر.

وجنودهم عدوا القناة... بحيث أصبح لهم الآن الساعة الثالثة والنصف، ما يقرب من ثمانية آلاف جندى.

والسؤال كيف لم تتحول مياه القناة إلى نيران؟!

والسؤال التالى كيف اخترقوا الساتر الترابى؟

والسؤال الثالث كيف قاوموا الدبابات والمدرعات والمجنزرات؟!

نظر إليه موشى ديان نظرة غاضبة، وقال له ساخرا:

الوحيد الذى بيده أن يُجيب يسأل، يا للمسخرة!!

ألست رئيسا للأركان؟!

- وأنت ألست وزيرا للحربية؟!

وزائيرا أليس رئيسا للمخابرات؟

حاولت جولدا مائير ضبط أعصابها وقالت: فلتهدأوا... مازالت الكلمة الأخيرة لنا، فليخرج الطيران، ويسحقهم.

أكمل موشى ديان: ويدق عظامهم.

نظرت جولدا مائير حولها وقالت: لكنى لا أرى قائد الطيران.

ابتسم موشى دايان قائلا: إنه يشرف على إرسال النسور لتلتقط الديدان.

٣٠ - سقوط النسور

اندفعت الطائرات الفانتوم إلى جبهة القناة.

ابتسم الجنود الإسرائيليون فى حصون بارليف عند سماعهم صوت طائراتهم.

إنها النسور التى تضمن لهم حسم المعركة الطيران فى ١٩٥٦, , . كان له دورا كبيراً.

والطيران فى ١٩٦٧م حسم المعركة فى الساعات الأولى.

وها هو الطيران فى عام ١٩٧٣م سيقوم بالدور الخالد.

هذه المرة... لن نكتفى بمدن القناة الثلاث (بورسعيد والإسماعيلية والسويس)، قد نأخذ الإسكندرية أيضا.

هذه خواطر دارت فى رؤوس منتشية بنصر ١٩٦٧م. اقتربت الطائرات الإسرائيلية من جبهة القناة، وهى منخفضة، ما هذا!! سرب من صواريخ سام٦, , . تندفع نحو الطائرات.

ارتبك الطيارون، وارتفعت الطائرات لتتفادى الصواريخ فقابلتها صواريخ سام٢.

تساقطت الطائرات.

فر بعضها مذعورا، وبعضها ألقى حمولته كيفما اتفق.

ماذا يحدث على هذه الجبهة؟!

هل مازال الطيارون السوفييت فى مصر؟!

أم أن هناك طيارين مرتزقة؟!

فقد اعترضتهم طائرات مصرية، وأسقطت طائرات إسرائيلية، سبعون طائرة إسرائيلية جاءت للهجوم وتصحيح الميزان، فعادت إلى إسرائيلى عشرون طائرة فقط.

صرخ وزير الطيران الإسرائيلى.

- لا تقتربوا من جبهة قناة السويس

٣١ - فى نهاية يوم غير عادى

كيف تكون للأيام شخصية؟!

يوم ٦ أكتوبر الموافق عشرة رمضان

حفر أحرفه فى ذاكرة المصريين.

غادر الرئيس السادات مجلس الدفاع الوطنى.

تاركا الأمر للقادة العسكريين المهنيين.

بعد أن تأكد من سقوط خمس حصون من خط بارليف وإقامة عشر كبارى.

وعبور ثمانين ألف جندى مصرى.

وسقوط خمسين طائرة إسرائيلية.

وتحطيم أكثر من مائة وعشرين دبابة.

كان الوضع على الجبهة أفضل كثيراً مما رُسِم له فالخسائر فى التعدية طفيفة

وفى الطائرات لا تذكر.

والساتر الترابى أصبح ساتراً مهلهلا تمد منه المعدات بسهولة.

السؤال الوحيد الذى سأله السادات وهو فى طريقه للمغادرة، ما هى أخبار إبراهيم الرفاعى ومجموعته؟!

أسقطت الطائرة الهليكوبتر بعضهم فى أماكن متعددة، أما إبراهيم وأربعة مقاتلين فقد أسقطتهم الطائرة فى منقطة بلاعيم فى مساء

خمسة أكتوبر ١٩٧٣م.

اختار إبراهيم ربوة جبلية كمكان للمبيت والإنطلاق عاين هو ورفاقه المنطقة جيدا، وحفظ مكان الصخور الساترة، ومكان الكهوف.

ثم قرروا أن يستطلعوا المكان ويدرسوه جيدا.

لاحظ إبراهيم أن المكان تحيطه الأسلاك الشائكة، لكنه لاحظ أيضا أن الحركة تسير بشكل عادى، لم يلاحظ تغييراً فى إيقاع حركة العمال.

والحراس... يتحركون فى أماكنهم حركات روتينية.

عاد هو ورفاقه إلى الربوة... وقرروا أن ينظموا طريقة النوم على أن يبدأوا عملهم فى فجر ٦ أكتوبر.

عربة الفجر الفضية... تقف على باب الليل، وأرسلت إليه إشارات ضوئية... ليسمح لها بالدخول والانتشار تثاءب الليل بخمول، وفتح بوابته بكسل... وطلب منها الدخول ببطء ونعومه وحذر.

وكانت هى اللحظة التى دخل فيها إبراهيم ورفاقه إلى الموقع بعد أن قطعوا السلك الشائك.

ووضعوا الشحنات المتفجرة فى أماكن قاتلة، وحرصوا على إخفائها، ثم بثو كثيراً من الألغام، وخرجوا تناولوا طعامهم، وانتظروا.

فى الساعة ١٤٢٠ (٢,٢٠ بعد الظهر)

من خلال التلسكوب رأى إبراهيم تغيراً فى إيقاع الحركة ثم بدأ الجميع يجرون فى اتجاهات مختلفة.

وخرجت سيارة جيب بسرعة فائقة.

عرف إبراهيم أن ساعة الصفر قد بدأت.

فأعطى إشارة لرفاقه، فأطلقوا الصواريخ نحو المتفجرات

... واهتز المكان، وتوالت المتفجرات، وملأ الدخان سماء المكان، وصرخت أجهزة الإنذار.

لم يغادر إبراهيم ورفاقه المكان إلا بعد تأكده من تصاعد لهب البترول.

جرى إبراهيم ورفاقه إلى الربوة.

بعد قليل... حلقت طائرة هليكوبتر فى المكان.

اختبأ إبراهيم ورجاله فى الكهوف.

جاءت سيارة محملة بالجنود، وصعدوا إلى الربوة.

وقرر إبراهيم ورفاقه أن يأخذوا زمام المبادأة.

فخرجوا، وهم يطلقون الأسلحة النارية، ويلقون القنابل اليدوية.

ثم ساد الصمت

وجدوا عدداً من الجثث.، وقرروا ترك المكان بسرعة.

حلقت ثلاث طائرات هليكوبتر على ارتفاع منخفض .... وكأنها تصر على الوصول إليهم وإبادتهم

٣٢- البحث عن إبراهيم الرفاعى

المراسل العسكرى شهد معجزة العبور، وركب القارب مع الجنود، وصاح من أعماقه «الله أكبر» وقبل تراب سيناء، هو يشعر أنه إنسان مختلف لا يخضع للمنطق والتفكير، فالمنطق يقول له إن تقبيل الأرض فعل وثنى ولكن تلك الروح العملاقة التى تسيطر على الجميع تنزع إلى الأعمال الخارقة، وقد رأى بعينيه القادة وهم يتسلقون الساتر الترابى، ولا ينتظرون فتح الثغرات.

بل، وقد رأى العميد أحمد حمدى، وهو يشارك بنفسه فى تثبيت خراطيم كوبرى التعدية.

أفكاره تخبراه بأن الجميع أصبحوا إبراهيم الرفاعى.

أو أن الروح التى تسيطر على إبراهيم هى نفس الروح التى تسيطر على الجميع.

لكن هناك شيء ما يشده إلى الرفاعى.

ليس شيئا واحدا.. إنها أشياء.

إبراهيم الذى يستمع للموسيقى الكلاسيك بكل ذرة فى جسده ثم يتحدث عن الموسيقى بعد انتهائها بعشق شديد.

الموسيقى... هى روح الفن الخالص... هى تراتيل الملائكة

... ويتذكر أحداث فلم كلاسيك، وخاصة فلم «جسر نهر كواى» ويحلل حركات الممثل أليك جونز وسكناته، ثم يسأل... لماذا...

نحب هذا الفلم.

ولا ينتظر إجابة... ويقول إن الفن العظيم يوقظ الروح ويدفع الإنسان إلى العمل النبيل... بل يجعل الإنسان يلمع مثل نجمه فى السماء... يجب أن يكون طموحنا هو العلو حتى السماء أليك جنس فى الفلم كان متمسكا بالمبادئ السامية، والكرامة الشامخة.

إبراهيم يتحدث عن بطل الفلم كأنه يصف نفسه، وصوته يصبح نوعا من العاطفة المذابة فى الكلمات.

كم أحب هذا الرجل... الفنان... المثقف... المقاتل... الصامت المتحدث اللبق.

كاد المراسل العسكرى (مباشر) أن يقهقه لهذه الخواطر لتى داهمته فى هذا الوقت الفريد وهو يحتاج كل خلايا مخه لإختران هذه اللحظات.. وفحص وتدقيق كل حركة.

لكن حبه لإبراهيم يملك عليه نفسه، وسيبحث عنه عند وصوله للضفة الشرقية.

هذا هو اليوم الثانى للقتال يوم ٧ أكتوبر، وقد كلف المراسل (مباشر) بمرافقة أولاد عبدالجابر، وعبدالجابر هو اللواء عبدالجابر أحمد على المسئول عن تدريب وتجهيز وقيادة صائدى الدبابات.

وهى وحدة جديدة... من مهامها تعطيل دبابات العدو حتى يتم عبور دباباتنا ومدرعاتنا والمدفعية المضادة للدبابات والطائرات.

والمراسل «عبده مباشر» غير مقتنع بهذه المهمة، ولكنه اعتبر وجوده معهم فترة إلتقاط أنفاس بعد أحداث اليوم الأول.

وأخذ يفحص الوجوه... الضابط سيد... ضابط صغير شاب برتبة نقيب... عيناه دائمة الحركة، وهذا النوع لا يوحى بالثقة... وعادة ما تكون أفكاره مضطربة ومتداخله.

ومن يكون هذا الشاب... القصير... أيضاً مثله... مثل ضابطه كثير الحركة، ويريد لفت الأنظار، ويعصر يديه، ويقفز لأعلى بحركات عصبية... ما اسمه... «عبدالعاطى»... هذا اسم لا يوحى إلا بالحقول والبقر وحياة القرى... ما صلته بالصواريخ؟ هذا كثير عليه لعبة السيجة، والبسكليت تعتبر آلة معقدة بالنسبة له فكيف يتعامل مع الدبابة؟!... وهذا شاب آخر صامت... هادئ... وكاد يهمس عبده بأنه شاب خامل إسمه (بيومى) والرابع نحيل كالخيال متعلق بعبدالعاطى... كأنه غصن لبلاب يلتف حول الشجرة... وإثنان آخران لم يتذكرهما المراسل.

كيف يمكن مقارنة هؤلاء... ببطل خارق مثل إبراهيم الرفاعى؟!

قد تكون مقارنة ظالة... أيها المراسل المثقف.

فمن غير المعقول مقارنة عميد أركان حرب، بنقيب أو جاويش أو عسكرى «كورك».

ابتسم «مباشر» لهذه المقارنة.

لكن ابتسامته اختفت عندما اختار النقيب سيد تبه مرتفعة... تشرف على الطريق، وتسلق التبة بخفة وتبعه الباقون، ووجد هو صعوبة وجهداً فى التسلق.

تحرك النقيب فى التبة، وفحص كل ركن، وعين منطقة وطلب منهم التواجد خلف صخرة.

ثم ألقى إليهم بتعليمات، ونقلوا... الصواريخ للمنطقة وساد السكون.

قطعه النقيب سيد قائلا: إن الرجال فى التبة الأولى قد حطموا دباباتين، وقد تقهقر العدو، وانسحب، وأفلت منهم.

لاحظ عبده مباشر كلمة (أفلت العدو منهم)

فسأل الضابط: كم كان عدد الدبابات المغيرة؟

– عشرون دبابة

كاد المراسل أن يقهقه عشرون دبابة أفلتت من مجموعة لا تتجاوز ست أفراد... ولابد أنها مجموعة بائسة مثل مجموعته هذه.

هل انتابنا الغرور... لنجاحنا المذهل فى العبور؟!

قد يكون، فإخفاء ميعاد الحركة ومفاجأة العدو عمل مذهل وعبور قناة السويس تحت أنظار العدو؟ وقهر الساتر الترابى وغابات الألغام وحصون خط بارليف... أعمال معجزة بكل المقاييس

... قد يكون هذا سببا للغرور، وقد يحق لهم الغرور.

رفع الضابط يده... فتجمدت الحركة، حتى الهواء توقف فى مكانه

وقال الضابط: استعدوا، ولا يتسرع أحد بإطلاق صاروخ قبل الإشارة.

ونظر الضابط إلى المراسل العسكرى، وقال له: ساعدهم فى

تجهيز الصواريخ.

كان صوته هادئا... حاسما... قاطعا.

ونظراته ثابتة وعميقة.

صوت الدبابات... صوت أجش مرعب... مثل صوت صرير أسنان وحوش ضخمة معبأة بالغضب ومشحونة بالكراهية.

ارتفعت الأتربة والرمال من تأثيرمرور الدبابات وحرثها المدمر للأرض.

قال الضابط «سيد»: انتظروا حتى تدخل كل الدبابات مجال الصواريخ، فلا أريد أن تفلت منكم دبابة.

نظرة غير مصدقة أفلتت من المراسل والتقطها النقيب، ولم يعلق، بل أشاح بوجهه بعيدا.

وظهرت الدبابة الأولى، وأصبحت فى مجال الصواريخ.

نظرات عبدالعاطى... تقابلت مع نظرات النقيب، فرفع الضابط يده معترضا.

ونظر المراسل إلى عبدالعاطى، فوجد ذقنه يهتز.

ماذا حدث لعبدالعاطى؟!... تركزت كل أحساسيه فى يديه.

هذا الشاب لا يعى أى شىء فى هذه اللحظة.

حياته كلها معلقة بصاروخ ودبابة.

المراسل يحاول استيعاب اللحظة، والإمساك بل دقائقها.

.... وظهر قول من الدبابات، مكون من سبعة عشر دبابة.

عندما أصبحت كل الدبابات فى المجال أعطى الضابط إشارته.

انطلق الصاروخ... كتلة من النيران... لها جهاز توجيه... عبدالعاطى يتحكم فيه...

حرص المراسل أن يركز نظراته على الدبابة، وتتبع الصاروخ مبهوراً... وتوقفت نظراته... عندما أصطدم الصاروخ بالدبابة... فقد حدث صوت انفجار هائل، وتصاعدت النيران الكثيفة المحاطة بالدخان الأسود تابعت نظرات المراسل حركة طاقم الصواريخ، إن أياديهم تتحرك حركة غريزية سريعة... كأنها حركة كمبيوتبر مسجلة.

وانفجرت دبابة أخرى، وثالثة.

ثم بدأت الدبابات تطلق مدافعها على التبة، وحدثت مناورة وحركة التفاف فى محاولة لتطويق الموقع.

لكن المجموعة الثانية تعاملت معها... بإرشاد الضابط... الذى كان يقوم بدور «المايسترو» فى توزيع الصواريخ على الدبابات هربت أربع دبابات منه؟!

إنهم أبطال من نوع غريب، ويتحدون كل ما يتعلق بالفراسة ودراسة الشخصية.

... ففى رأى المراسل العسكرى أن قدراتهم لا تتجاوز الساقية والشادوف لكن الحرب... أثبتت أنهم عمالقة يجيدون التعامل مع تكنولوجيا معقدة للآلة، وتحكم قوى فى شبكة أعصاب تعمل فى ظروف خطرة... يُحسَبْ الزمن فيها. بجزء من الثانية.

بعد قليل... جاءت طائرتان فانتوم، واختفت المجموعة بين الصخور، وداخل الكهوف.

وألقت الطائرتان حمولتهما المرعبة على الصخور.

وبعد قليل ظهرت الدبابات الأربع، ووجهت مدافعها إلى الصخور... وأماكن الإطلاق.

ثم تقدمت مسرعة إلى الموقع، وهي مستمرة في إطلاق نيرانها... وفوجئت الدبابة الأخيرة بصاروخ يحطمها من الجانب.

تنبه القائد لوجود مجموعة أخرى تتعامل معه.. فتوقف وغير من حركته... لمواجهة هذه المجموعة.

... وكان هذا آخر توقف له، فقد احتل عبدالعاطى موقعا جديداً وبسرعة فائقة تعامل مع الدبابات الثلاث فحولها إلى نيران ودخان ورماد.

حتى إن وزير المالية الإسرائيلي صرخ حزنا، وهو يقول «صاروخ بآلافات... يدمر دبابة بملايين.. إنها صفقة خاسرة».

... لم يتوقف الإسرائيليون عن مهاجمة الموقع، فعادت الطائرات الإسرائيلية مرة أخرى لتصب حممها.

... وأرسلوا دبابة واحدة... لمعرفة الموقف.

ورأوا النتيجة فى النيران المتصاعدة للسماء.

... فاقتنعوا... وابتعدوا عن هذا الطريق لأنه طريق هلاك يحرسه أبطال غير عاديين هم أولاد عبدالجابر.

٣٣ - الاثنين الأسود

يوم ٨ أكتوبر ١٩٧٣م.

الأحداث المتلاحقة فى أكتوبر ١٩٧٣م تستحق التسجيل لحظة بلحظة لأنها أحداث تغير من وجه المنطقة بالتعبير السياسى وتغير من الاستراتيجية العسكرية بالتعبير الأكاديمى.

وأحداث درامية لأن أطرافها يريدون تحقيق أهدافهم من خلال جهد فكرى وبالقوة المسلحة وبالتضحية بالروح».

هذا ما كتبه المراسل العسكرى «عبده مباشر»، وهو يبعث برسالته اليومية إلى الجريدة الكبرى.

وأضاف أنه انتقل إلى الجيش الثانى بقيادة العميد حسن أبوسعدة، وقد حضر هجوم اللواء (١٩٠ مدرعات)

كان موشى دايان وزير الحرب الإسرائيلى يعيش أصعب أيامه.

بل هو يكابد لحظات مدمرة لأعصابه ومشتتة لذرات مخه، فى البداية كان يخطط لضربة قوية لكل الجبهات العربية ليحقق نظرية الحزام الأسود التى يؤمن بها.

وهاجمه الإعصار، فى اليوم الأول فلم يتزعزع، وعندما تحدث مع جولدا مائير (رئيسة الوزراء)، وقالت به: فى عام ١٩٦٧م انهالت الأموال على تل أبيب، وتدفقت المعونات، فالعالم لا يحترم إلا الأقوياء، وقد عاين قوتنا بنفسه، وأنت يا ديان عشت أسعد

أيامك... عشت كأسطورة شمشمون، وعشت فى أفخم الفنادق، وأكلت فى أفخر المطاعم، وكنت نجم المجتمع، فماذا أنت فاعل الآن؟

ابتسم ديان ساخراً، وقال: إعطينى ساعتين أو ثلاث وبالكثير يوما، وسأسحق عظامهم، وأبدد شملهم. فى نهاية اليوم الأول.. بدأ يشعر بالدوار.. فحصون خط بارليف سقط معظمها، وفقدوا خمسين طائرة، وحوالى ٥٠٠ قتيل.

فى اليوم الثانى... سقطت أغلب الحصون الباقية، وحاصر المصريون القنطرة شرق.

فى اليوم الثالث يوم الاثنين ٨ أكتوبر

قال دايان للعقيد: عساف ياجورى ستهجم بلواء مدرع مكون من ١٨٠ دبابة، أريدك أن تخترقهم كالسهم النارى، أنت تتعامل مع المشاه، دع دباباتك تسحقهم، وكلمنى عندما تقف على شط القناة.

– كن واثقا يا سيدى.

– فى ماذا يا عساف؟

– سأحضر لك قائد اللواء الثانى أسيراً.

– لا أريد أسرى، أريدك أن تدفنهم فى سيناء، أو تغرقهم فى القناة، وكرر لنا حكاية نبينا موسى وغرق فرعون.

– سيحدث يا سيدى.

– أنا أعرف أنك دارس فنون الحرب بالمدرعات، وقرأت مقالاتك ولذلك اخترتك لهذه المهمة.

وصمت دايان قليلا ثم قال بصوت عميق ممتلئ باليأس الممزوج بالرجاء والتمنى: مهمتك هى الفيصل فى إنقاذ إسرائيل أو.....

استمع العميد حسن أبو سعدة لتقرير رجال الإستطلاع وعرف حجم اللواء المهاجم، بل وتصور تخطيط القائد.

فوضع دباباته القليلة فى المؤخرة.

وقسم قواته إلى مربع ناقص، وشرح خطته إلى قواده الأصاغر... بأنه يريد أن يأخذ لواء الدبابات فى حضنه ثم يقفل المربع عليه، ويسحقه.

خطة طموحة، وتكاد تكون مستحيلة.

لكن العميد الشاب... كان واثقا من تخطيطه، ومن رجاله.

.... ظهر لواء المدرعات...

ابتسم عساف يا جورى، وهو يرى قليلا من المشاه يتربصون به، دفع أربع دبابات نحو الميمنة.

.... أشار العميد أبو سعدة إلى مفرزة من رجاله للتعامل مع الميمنة على أنه الهجوم الرئيسى، ويجب أن يظهروا ضعف نيرانهم.

ابتسم عساف يا جورى، وأرسل أربع دبابات إلى الميسرة، وتم التعامل معهم مثل الميمنة.

اندفعت ثمان دبابات... إلى المقدمة... وبلغت أقصى مسافة مسموح بها.

ثم قرر العقيد عساف الهجوم الساحق.

وخرج الرجال من الحفر، وظهرت الدبابات المصرية من مكانها وفتح باب الجحيم، وأُغلِقَ المربع النارى.

خلال ٢٥ دقيقة تم تحطيم اللواء المدرع بالكامل.

وهبط عساف ياجورى... من إحدى السيارات التى أرادت أن تفر من أرض الهلاك، لكن الرصاص لاحقها، وفجّرها.

اتصل عساف بدايان... وقال بصوت باك: لقد هزمنا.

سقط دايان فاقد الوعى.

وقف عساف يا جورى منهاراً أمام العميد حسن أبو سعدة

قال له من خلال دموعه: ماذا ستفعل بى يا سيدى؟

- قل ماذا ستفعل بنا؟

- هل ستقتلنا؟

- لا، الحرب انتهت بالنسبة لكم، وأنتم مجرد أسرى حرب.

- ماذا؟!!

- هل لك أى طلبات خاصة؟

- صورة زوجتى وابنتى الصغيرة.

- لك هذا، هل هناك طلب آخر؟

- نعم كيف فعلتوا ذلك بنا، وأنتم مجرد مشاة.

- ثقتنا فى الله وفى أنفسنا، وعدالة قضيتنا، والتدريب المستمر.

فى نهاية يوم الاثنين، قال موشى دايان لرئيسة الوزراء:

- إنه يوم أسود... فقد قضى المصريون على اللواء (١٩٠مدرعات)

وقضوا على جنودنا فى القنطرة شرق، وسقطت أغلب حصون خط بارليف، ولا أدرى... ماذا أفعل بعد أن تأكد لى أننا لن نستطيع إعادة المصريين للخلف.

– دخل جندى بإشارة مستعجلة أعطاها لجولدا مائير قرأت فيها هاجم إبراهيم الرفاعى... أتوبيس يحمل أربعين طياراً، وحرق الأوتوبيس وقتل الطيارين.

أعطت الرسال لموشى دايان، فصاح منهاراً.

كيف حدث هذا؟!!

فى أثناء سيرهم... بعد أن تمكنوا من حرق بترول بلاعيم. وتمكنوا من الهرب.

التقطت الآذان أصوات سيارات.

بحذر شديد تسلل المقاتل مجدى إلى حافة الجبل، ورأى أوتوبيسين... يسير أمامها سيارتان من نوع الجيب وكذلك خلفهما، والسيارات الجيب محملة بالجنود.

وصف المقاتل مجدى ما شاهده لإبراهيم.

قال الرفاعى: الأوتوبيسان يحملان جنودا من نوعية خاصة.

سأل مقاتل: أو... دبلوماسيون: لا... أنهم جنود... لأن السيارات الجيب تحرس الجنود... لا الدبلوماسيين.

– وماذا تظنهم؟

– طيارون

– آه، وماذا نفعل؟

– نقضى عليهم

– نحن الأربعة؟

– نعم...، هيا نعد لهم كمينا.

– قدّر إبراهيم الرفاعى الطريق الذى سيسير فيه الأتوبيسات ووزع الرجال على طول الطريق... على أن يبدأوا بالتخلص من سيارات الحراسة أولا.

... وكمن الرجال الأربعة... وانتظروا وجاء الموكب، وانتظروا حتى أصبح الجميع محصورين بين أول وآخر مقاتل.

أعطى إبراهيم الرفاعى الإشارة المتفق عليها.

فانطلقت قذائف الأر. بى. جى، والقنابل اليدوية والرشاشات...

احترقت السيارات... واحترق الأوتوبيس. وأبيد الموكب عن آخره.

٣٤ - أنقذونا

جولدا مائير تحدث أبا إيبان وزير الخارجية الإسرائيلى الذى طار إلى أمريكا... طالبا للنجدة.

جولدا: إسرائيل... فى حالة تفكك...، لو استمر الحال هكذا ستختفى إسرائيل من الوجود.

أبا إيبان: إن كيسنجر لا يصدق، ويتهمنا بالمبالغة.

- مبالغة، إن المصريين يقتلوننا بدون رحمة، اليوم قتلوا أربعين طيارا، وأبادوا لواء دبابات مكون من ١٨٠ دبابة،... صلنى بكيسنجر

- نعم يا جولدى

- صوت بكاء

- أتبكين يا جولدى؟

- اليهود يُذبَحون مرة أخرى.

- إهدئى يا جولدى، ولا تبالغى.

- كيف؟ وقد انهار موشى دايان، واستولى المصريون على مركز القيادة الشمالى، واستولوا على القنطرة شرق، وحطموا خط برليف... وقتلوا أربع الآف جندى وجرحوا خمسة عشر ألف.

- ماذا تريدين؟

- تعويض لكل الأسلحة... من طائرات ودبابات، وأعطنا أسلحة

تضمن لنا التفوق.

- إن نيكسون متعاطف جداً، وسنفتح لكم من مخازن البنتاجون.

هبطت طائرة عسكرية فى تل أبيب قادمة من واشنطن، ونزل من الطائرة عدد من القادة العسكريين الأمريكان.

اجتمع القادة الأمريكان والإسرائيليون، ودرسوا الموقف العسكرى وقرروا تحييد جبهة سوريا بالتركيز عليها، ثم العودة إلى جبهة مصر، مع تعويض إسرائيل بالأسلحة الحديثة، وبالقنابل التليفزيونية التى لم تستخدم من قبل، وتعويض إسرائيل بالطيارين وسائقى الدبابات.

وبدأ جسرى جوى لنقل الأسلحة من أمريكا لتل أبيب.

وفى ليلة ١٥ أكتوبر تسللت قوة من لواء مظلات إسرائيل ليلا إلى الشاطئ الشرقى للقناة عن طريق البحيرات المرة ثم لحقت بها سرية من الدبابات.

اجتمع الرئيس السادات مع الفريق أول أحمد إسماعيل، والفريق محمد عبدالغنى الجمسى، وبعض القادة العسكريين، وعلى رأسهم اللواء سعد مأمون لدراسة الموقف.

وقدّر العسكريون... أن هذه الثغرة لن تغير من نتيجة الحرب على الإطلاق، والقضاء على الموجودين أمر يسير وتم تكليف اللواء سعد مأمون بوضع التخطيط اللازم للقضاء على الجنود الإسرائيليين الموجودين فى الثغرة.

كيسنجر... وزير خارجية أمريكا.. طلب من وزير خارجية مصر ألا تقضى مصر على جنود الثغرة، أو تقوم بأى عمل لتصفية هذه الثغرة محذراً بحرب وتدخل أمريكى.، وملوحاً بحل عاجل وإيقاف سريع للقتال.

٣٥ - المهمة الأخيرة للبطل

كتب المراسل العسكرى (مباشر) فى مفكرته

قد تمكن العدو من إنشاء كوبرى فى منطقة الدفرسوار وأصبح له فرقتان مدرعتان غرب القناة.

وبالرغم من أن الوضع أصبح خطيراً، إلا أن أمر القضاء على الجنود الموجودين فى الثغرة يعتبر أمر ممكن، فمن المعروف أنه يسهل القضاء على جنود كثيرين فى منطقة محدودة.

والآن تعود إلى ذاكرتى... حكاية توازن القوى، وجيش محمد على الذى لم تسمح له أوروبا بالتوسع.

وأيضا جمال عبدالناصر... الذى كان رائدا لتحرر دول العالم الثالث أى أنه أراد أن يلعب دورا ضد الدول الكبرى.

والآن... أمريكا وروسيا، وتوزان القوى بينهما، فأمريكا لن تسمح بهزيمة إسرائيل، فهى رأس الرمح لها فى إنهاء الوجود السوفيتى فى الشرق الأوسط.

ولذلك وافق السادات على المساعى لإيقاف الحرب.

- مَنْ؟! إبراهيم الرفاعى؟!

عانق المراسل العسكرى (مباشر) صديقه الأثير (الرفاعى).

احتضنه الرفاعى وقبله صامتا، لكنه كان يشع بعواطف صادقة وحارة.

- كنت أبحث عنك طوال الحرب يا رفاعى.
- من الخير لك أن تبتعد عن طريقى.
ضحك مباشر، وقال له أين كنت؟
- كنت أصطاد الأفاعى.
- أريد أن أسمع
- ليس الآن.
- لماذا أنت هنا؟
- سأقول لك فيما بعد
- عدنى أن تأخذنى معك فى المهمة القادمة.
- لا أعدك بشىء لأنى أحبك.
أخيراً وقف فى حضرته

الرجل الذى يماثل أبوالهول فى ملامحه، والذى يدين له بفضل مساعدته على تكوين مجموعته (٣٩) الفريق أحمد إسماعيل وزير الحربية.

... الرجل ما زال شامخا، والحقيقة أن ما حققه كان أسطوريا حتى تدخلت أمريكا، ولعبة السياسة، وموضوع توازن القوى.

- إبراهيم... أريد إيقاف شارون فهو يتقدم على طريق السويس - الإسماعيلية... يجب وقف هذا الهجوم.

- سأتى معك يا رفاعى، وسأحصل على السماح من القائد الأعلى.
ابتسم إبراهيم وقال له: مازال لك أطفال يحتاجون إليك

– وأنت؟!
– مصر تحتاجنى أكثر.
– وأنا لن أكون أقل منك.
– تعال.

تحول كل القتال إلى منطقة الثغرة.

فالمصريون يحاولون تصفية هذه الثغرة بهدوء، وبدون إعلان والعدو يحاول الاستيلاء على مدينة الإسماعيلية.

عندما وصل أفراد من المجموعة (٣٩) بقيادة النمر إبراهيم الرفاعى. درس إبراهيم الموقف.

وجاء رجال الاستطلاع، وشرحوا له وضع جيش العدو، وبدأ يخطط لعمل كمين قاتل للواء المدرعات المهاجم، وأصر «مباشر» على أن يكون معه.

إبراهيم لم يلتفت إليه، فلا وقت للعواطف.

وتقدم كعاته لضرب المثل لرجاله، وكمن فى موقع محدد.

تقدمت الدبابات تزأر... فالعدد أصبح كثيرا، والسلاح متفوقا، لم يصدق مباشر ما رآه بعينيه.

الرفاعى يقف فى مواجهة الدبابة الأولى الذهول استولى على طاقم الدبابة. وقبل أن يرتد الطرف قذف بقنبلته على الدبابة، فانفجرت وتحولت إلى رماد... مطلقة عاصفة من النيران ولسانا من الدخان.

بسرعة غير الرفاعى مكانه، بعد أن أطلق فى رجاله روح التحدى فى مكمنة الجديد أصاب الدبابة الثانية.

ثم أخذ يقفز... إلى مكان ثالث، ودمر الدبابة الثالثة. العدو أصيب بالذعر، فأطلق دانانه فى كل مكان.

ورجال الفرقة... يدمرون الدبابات بالقنابل والصواريخ مما آثار الفزع... وطلبوا تدخل الطيران... وهم يطلقون دانات الدبابات فى كل مكان، وطارت شظية... أصابت البطل فى مقتل.

صاح مباشر: يا رفاعى!!.. يارب. لم يصدق أحد من رجاله أن إبراهيم استشهد.

وهجموا بأسلحتهم على الدبابات، ووصل الأمر إلى الاشتباك بالسلاح الأبيض، فصدر الأمر للمدرعات بالتقهقر، وصرف النظر عن احتلال الإسماعيلية.

وحمل الرجال الجسد الطاهر.

وبكى مباشر عندما لمح وجه صديقه مبتسما.

أوسمة وطنية

قرر عبده مباشر أن يذكر للأجيال القادمة تاريخ حياة صديقه البطل، صديقه الذى تعرف عليه فى ميدان القتال.

وبدأ بزيارة بيته بعد انتهاء المعركة، وبعد أن تم جلاء العدو عن كل الأراضى المصرية. ومن المعروف أن العدو لا يترك أرضا استولى عليها إلا إذا رأى أن وضعه حرجا، ولذلك فإن أول أرض تركها هى منطقة الثغرة.

وقف فى الحجرة ساكنا... فروح الشهيد ترفرف فى المكان.

بين الأوسمة التى تسلمها لشجاعته... وهى:

وسام بطولة الجيش ونوط الجلاء عام ١٩٩٥

نوط الاستقلال عام ١٩٥٦م

نوط النصر عام ١٩٥٧م

نوط الشجاعة العسكرى من الطبقة الأولى عام ١٩٦٠

نوط الوحدة عام ١٩٦١م

نوط الجيش عام ١٩٦٣م

ميدالية الترقية الاستثنائى عام ١٩٦٥م

نوط الشجاعة العسكرى من الطبقة الأولى عام ١٩٦٨م

وسام النجمة العسكرية عام ١٩٦٨م

وسام النجمة العسكرية عام ١٩٦٩م

نوط الواجب العسكرى من الطبقة الأولى عام ١٩٦٨م
وسام نجمة الشرف العسكرية عام ١٩٦٨م
وسام نجمة سيناء عام ١٩٧٤م

فكر عبده مباشر فى أن يكتب كتابا عن الأوسمة وسبب حصول البطل عليها.

ولكنهم نصحوه بكتابة معاركه فى اليمن.

وقائد آخر نصحه بكتابة معاركه فى حرب الاستنزاف وثالث نصحه بكتابة معاركه فى أثناء حرب ١٩٧٣م

أما «عبده باشا» فقد اكتشف أثناء بحثه، وأثناء المعارك أن هناك أبطالا لا حصر لهم، فقد رأى جندى إشارة يصل الأسلاك بأسنانه ليبلغ عن تقدم لواء مدرع إسرائيلى ويستشهد، كما رأى نقيبا شابا يقود مجموعته لاقتحام أحد حصون بارليف، وهو يمسك أمعاءه بيديه... ويستشهد بعد أن تأكد من اقتحام الحصن.

و.... القائمة طويلة... فحرب ١٩٧٣م كشفت عن معدن المصرى عندما يواجه الخطر.

تمت والحمد لله.

المراجع

هذه بعض المراجع أنصح القارئ بالرجوع إليها ليعرف تاريخ بلده.

١- حرب أكتوبر ١٩٧٣م
مذكرات المشير محمد عبدالغنى الجمسى
٢- حرب رمضان
للواء حسن البدرى - اللواء طه المجدوب العميد ضياء زهدى
٣- الساعة ١٤٠٥
صلاح قبضايا (كتاب اليوم)
٤- العسكرية المصرية
حمدى لطفى
٥- اليوم السابع
حمدى الكنيسى
٦- أبطال الفرقة (١٩)
فريق يوسف عفيفى
٧- أكلة الدبابات
اللواء عبدالجابر أحمد على
٨- مراسل حربى فى الجبهة
محمد جبر

١٠- حرب أكتوبر شهادة إسرائيلية
وجيه أبو ذكرى
١١- مذكرات جندى مصرى فى جبهة قناة السويس
١٢- الندوة الإستراتيجية
حرب أكتوبر بعد ٢٥ عاما
١٣- فارس الرحلة المستحيلة
محمد الشافعى
١٤- رحلة الساق المعلقة
العميد أركان حرب عادل يسرى
١٥- أكتوبر ١٩٧٣م السلاح والسياسة
محمد حسنين هيكل
١٦- وثائق أكتوبر
موسى صبرى
١٧- المفاجأة
لواء مختار عز الدين
١٨- ممنوع من التداول
محمود عوض



ينعم الإنسان بشعور الألفة بينه وبين المجتمع الذى يحياه ويحيا فيه حين يفتح أفقا أمام الحاضر والمستقبل باستيعاب المعلوم وإدراكه المجهول وحين يقرأ لنفسه ويقرأ للآخرين فكل قراءة تجدد المعرفة تحررنا من العجز أمام المشكلات ، وتمنحنا طاقة الإمكان على تحسين الحياة بأن نوظف معارفنا لكل ماهو نافع ومفيد. فالمعرفة أهم وأغنى وأقوى مايمكن أن نمتلكه فى الحياة ، ففى ظلها يزدهر عقل الأنسان ووعيه المتجدد الحضور فتتعدد لديه الإبداعات والإنجازات ، وينتج الموارد والثروة ويصنع القوة وتتسع أمامه كل المجالات . إن من يحسن القراءة يحسن ممارسة الحياة . لذا كانت وستظل دعوتى أن نقرأ للحاضر .. أن نقرأ للمستقبل .. أن نقرأ للحياة .

سوزان مبارك